الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
PEOPLE'S DEMOCRATIC REPUBLIC OF ALGERIA
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION AND SCIENTIFIC RESEARCH
جامعة 8 ماي 1945 -قالمة-
UNIVERSITY OF 8 MAY 1945 -GUELMA-

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

قسم الفلسفة
تخصص فلسفة تطبيقية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر

الفوضوية المنهجية عند بول فيرابند

من إعداد الطالب:
❖ أسامة عمیار

إشراف الأستاذ:
العالم عبد الحميد

أعضاء لجنة المناقشة:

الأستاذ(ة)	الصفة
العالم عبد الحميد	مشرفا ومقررا
بن مزهود شهيناز	رئيسا
بدة فوزية	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2024/2023م

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

سورة المجادلة – الآية 11

شكر وتقدير:

الشكر الأول والأخير لله عز وجل، فالحمد لله الذي وفقنا إلى إتمام هذا الإنجاز،والذي رغم تواضعه إلا أنه أخذ ما يكفي من الوقت والجهد، وبعد الله أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لأساتذة قسم الفلسفة المحترمين، و نخص بالذكر الأستاذ العالم عبد الحميد الذي كان مشرفا ومؤطرا لهذا العمل والذي لم يبخل علينا بالعمل أو بالكلمة الطيبة وكان نعم المشرف والموجه.

ولكل من ساهم في مساعدتي من قريب أو من بعيد في إتمام عملي في أحسن الظروف، والحمد لله ختاما والصلاة والسلام على رسوله الكريم.

أسامة عمیار

الإهداء

إلى والداي اللذان كانا عونا وسندا لي بعد المولى عز وجل أطال الله في عمرهما وشفاهما، وحفظهما، وألبسهما ثوب الصحة والعافية.

إلى كل العائلة كل فرد بإسمه من كبيرهم إلى صغيرهم.

كما أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى كل الأصدقاء والأحباب.

إلى كل من ساندني ووقف معي من قريب أو من بعيد في إتمام الدراسة.

المقدمة

مقدمة:

تكمن أهمية المعرفة العلمية في حياة الإنسان في قدرتها على استخدام العقل، وهي القدرة التي يسعى من خلالها لاكتشاف الحقائق والوصول إلى معرفة صحيحة وثابتة، ولكي يتمكن من امتلاك المعرفة العلمية، يحتاج الإنسان إلى استخدام وسائل وطرق منهجية، سواء كانت تتعلق بالتفكير والتحليل غير الملموس للطبيعة، أو بالتجارب والاستقصاءات التي تتعامل مع الواقع الملموس.

حيث شهد الفكر البشري عبر سيرورة مراحله التاريخية، العديد من المناهج العلمية المختلفة من حيث أشكالها و قواعدها، فمنها ما هو عقلاني استنباطي، ومنها ما هو تجريبي واقعي، لتظهر بذلك الارهاصات الأولى لفكرة المنهج على يد الفيلسوف اليوناني أرسطو حيث كان هو السباق لهذه المهمة، وذلك من خلال تأسيسه للاستدلال الإستنتاجي، حيث عمل على وضع مجموعة من القواعد العقلية التي يسير العقل على خطاها لتعصمه من الوقوع في الخطأ وتمكنه من بناء معرفة منطقية.

وفي ضوء التطورات التي شهدها مجال فلسفة العلم في العصر الحديث، نشأ ما يُعرف بالمنهج الاستقرائي، وهو نتيجة للحركة الإبستيمية التي عرفتها قضية المنهج، حيث قام رواد النزعة التجريبية، أمثال فرانسيس بيكون وجون ستيوارت مل ودافيد هيوم، بتطوير هذا المنهج، إذ يقوم المنهج الاستقرائي على سلسلة من الخطوات والمبادئ العقلية والتجريبية، مثل الفرضية والعلية والملاحظة والتجربة، وهذا المنهج كان وراء نجاح علوم المادة الجامدة، مثل الفيزياء والأحياء وكذلك العلوم الإنسانية، مثل التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع، فقد تم نقل المنهج التجريبي وتطبيقه على هذه الموضوعات، مع الحفاظ على خصوصيات كل تخصص، مما أدى إلى تشكيل فاصل بين الدراسات العلمية واللاعلمية، وكذلك تعزيز الدراسات التي تهدف إلى تحقيق التطور والتقدم، فنحن نسعى من خلال هذا المنهج، إلى تحقيق أهدافنا في فهم العالم وتطوير المعرفة.

لم يخلو المنهج العلمي من الانتقادات اللاذعة التي تعرض لها في القرن التاسع عشر والقرن العشرين من قبل فلاسفة العلوم، إذ تجاهل هؤلاء الفلاسفة المبادئ والأسس التي يقوم عليها المنهج العلمي، وبدل من ذلك انصب اهتمامهم على مشكلة الاستقراء، مما أدى إلى ثورة جديدة في الفكر حول فكرة المنهج العلمي المناسب. وبالتالي، ظهرت مناهج متنوعة تختلف في الرؤى والقواعد والمعايير، مما أدى إلى تحول القرن العشرين إلى عصر الفوضوية المنهجية.

بالتأكيد، أصبح العلم اليوم مشروعاً متطوراً يعتمد على انتهاك العقلانية السائدة التي تؤمن بالثبات. لقد أدى ذلك إلى ظهور مجموعة متنوعة من المناهج العلمية المتعددة والنسبية، حيث لا يوجد منهج واحد يمكن اعتباره الأساس الثابت للعلم، فالعلم اليوم يعكس التعقيدات والتنوعات التي

تتواجد في الواقع، ويتطور وفقًا للظروف والسياقات المحيطة به، فبهذا التحول الفلسفي، يتم فتح آفاق جديدة للتفكير والاستكشاف في المجال العلمي، حيث يتم قبول الحقيقة المتعددة والنسبية، ويتضح أن المعرفة العلمية ليست مطلقة وثابتة، فالعلم يعمل على تعديل وتحسين النظريات والمفاهيم القائمة ويقدم تجارب واستنتاجات جديدة، وذلك من أجل فهم أعمق وأكثر شمولًا للعالم من حولنا.

لذا، يمكن اعتبار القرن العشرين فترة تميزت بتحول العلم من نهج ثابت ومطلق إلى نهج متسامح ومتنوع، وباعتبار المنهج العلمي النسبي والمتعدد، ندرك أن العلم ليس مجرد مجموعة من الحقائق الثابتة، بل هو رحلة مستمرة نسعى من خلالها لاكتشاف حقائق جديدة وتوسيع آفاق المعرفة البشرية.

وهذا ما دفع بول فيرابند (1924-1994)، فيلسوف العلم النمساوي المعاصر، والذي برز كأحد أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين بفضل جرأته الفكرية، حيث كان ناقدًا للعقلانية الغربية وطريقة تفكيرها، خاصة فيما يتعلق بالعلم والمنهج، للقيام بتأسيس مشروع فلسفي متمحور حول مفهوم الفوضوية المنهجية، وهذا ما منحه مكانة رفيعة في فلسفة العلوم المعاصرة، ومن ثمة فقد كان إختيارنا له ليكون عنوانا وموضوعا لمذكرة بحثنا المعنونة ب: الفوضوية المنهجية عند فيرابند.

ويعود الدافع لإختيارنا لهذا الموضوع إلى أسباب عديدة منها الذاتي ومنها الموضوعي، وأما عن الأسباب الذاتية فيرجع إلى ميلنا للخوض في قضايا فلسفة العلم، و ذلك لارتباطها بالواقع العلمي واعجابنا بفلسفته الفريدة والمتميزة.

وأما عن الأسباب الموضوعية التي قادتنا للقيام بهذه الدراسة حول فيرابند فهي تعود للمكانة المهمة التي يحتلها هذا الأخير في الفكر الفلسفي المعاصر، حيث تكمن أهميته في القضايا التي تناولها في كل من مجال العلم و الحضارة الإنسانية المعاصرة، إضافة إلى قلة الدراسات الموجودة لهذه الشخصية الفكرية، وبالإضافة إلى الدافع والرغبة في فهم وتحليل المشروع الإبستيمولوجي لفيرابند.

وقد كانت هناك دراسات سابقة حول هذا الموضوع رغم قلتها والتي تضمنت طرحا للموضوع نذكر منها: مذكرة الماجيستر لشاذلي هواري بعنوان: "إشكالية تطور العلم وأزمة المنهج" وكذلك مذكرة الماجيستر لهري علي المعنونة ب: "البرمجة عند إمري لاكاتوش" وكذلك المقالات العلمية كمقالة الأستاذ العالم عبد الحميد والتي بعنوان: "إشكالية المنهج في الفلسفة المعاصرة من الأحادية إلى الفوضوية بول فيراباند أنموذجا" وكذلك مقالة بوعلام الزهرة تحت عنوان: " الإبستيمولوجية الفوضوية عند بول فيرابند والتفسير اللاعقلاني لتطور العلم".

ولكن أردنا من خلال بحثنا هذا أن نتناول هذا الموضوع من ناحية أخرى، حتى يتسنى لنا ابراز بصمتنا.

لنسعى من خلالها للإجابة عن الإشكالية التالية: **إذا كان المنهج يشكل تاريخيا إحدى أهم دعائم وشروط المعرفة العلمية، فهل تقدم العلم يستلزم بالضرورة التقيد بأحادية المنهج؟ أم أنه بالإمكان تجاوز هذه الصرامة المنهجية والأخذ بفكرة تعدد المناهج أو مايعرف بالفوضوية المنهجية؟**

وقد تفرع عن هذه الإشكالية جملة من التساؤلات:

– فيما تتجلى الخلفية المؤسسة لفكرة الفوضوية عند فيرابند؟ وفيما يتمثل مشروعه النقدي الفوضوي؟

– ما المقصود بمصطلح الفوضوية عنده وما مبرراتها؟

– ما موقف فيرابند من العلم ؟ وما حدود مقاربة فيرابند الفوضوية؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات قمنا بتقسيم بحثنا إلى ثلاث فصول:

الفصل الأول الذي كان بعنوان: **الخلفيات الأساسية والمنطلقات النقدية لفكرة اللامنهج عند بول فيرابند**، والذي تطرقنا فيه إلى أربعة مباحث، فكان **المبحث الأول** بعنوان: **بول فيرابند حياته، مؤلفاته ومساره الفكري**، **والمبحث الثاني** بعنوان: **الخلفيات الفلسفية والعلمية للفوضوية**، **والمبحث الثالث** بعنوان: **المنطلقات النقدية والمبحث الرابع** بعنوان : **مفهوم المنهج وأهميته.**

أما **الفصل الثاني** فكان بعنوان: **الفوضوية المنهجية وعلاقتها بتطور العلم عند فيرابند**، وقد تناولنا فيه ثلاث مباحث، جاء **المبحث الأول** بعنوان: **في مفهوم الفوضوية المنهجية**، أما **المبحث الثاني** فكان بعنوان: **مبررات فيرابند في دفاعه عن الفوضوية (التعددية)**، وأما **المبحث الثالث** فقد جاء بعنوان: **الفوضوية وعلاقتها بالعلم.**

وأما **الفصل الثالث:** فكان بعنوان: **حدود المقاربة الفوضوية عند فيرابند**، وقد تناولنا فيه مبحثين فكان المبحث الأول تحت عنوان: مقاربة بين توماس كون وبول فيرابند، والمبحث الثاني بعنوان: مقاربة بين إمري لاكاتوش وبول فيرابند.

وقد إعتمدنا في إنجاز هذا البحث على المنهج التحليلي المناسب للتعامل مع نصوص فلسفة "فيرابند"، وقد قمنا بالاعتماد في تحليلنا لإشكالية البحث على المؤلفات الأصلية التي كتبت بها أو الرجوع إليها في كثير من الأحيان، و إن كان وصولنا إليها يتسم بالصعوبة، وبالاضافة إلى ذلك صعوبة دراسة لغة فيرابند، إضافة إلى المنهج التاريخي، لاسيما في الفصل الأول عند حديثنا عن الخلفيات الفلسفية والعلمية للفوضوية، والمنطلقات النقدية، دون أن ننسى المنهج المقارن وتحديدا في

الفصل الثالث، من خلال عقدنا لمقارنة بين ما جاء به فيرابند من آراء ومقارنتها ببعض آراء فلاسفة العلم المعاصرين، خاصة " توماس كون " و" إمري لاكاتوش ".

وأما بالنسبة للمصادر والمراجع المعتمدة لإنجاز هذه الدراسة فكان لابد من العودة للمصادر الأصلية لفيرابند، حيث اعتمدنا في ذلك على مؤلفاته الأصلية التي تخص فلسفة العلم، وبالأخص التي تناولت مشروعه الابستيمولوجي بالتحليل والتفصيل مثل كتاب " ثلاثة محاورات في المعرفة " والتي أعتمد فيرابند في تأليفها على أسلوب المحاورة للتعبير عن نظرته الفكرية والابستيمولوجية وكذلك أيضا مؤلفه الشهير "ضد المنهج" الذي أثار جدلا كبيرا في الأوساط الفكرية، بالإضافة إلى مراجع عديدة ذات صلة مباشرة بفلسفة العلم المعاصرة عموما و بفيرابند خصوصا، مثل كتاب "يمنى طريف الخولي" فلسفة العلم في القرن العشرين.

وأما عن الصعوبات التي واجهتنا في إطار إنجاز هذه الدراسة فهي عديدة حاولنا تذليلها، ولعل أكثرها أهمية هي قلة المراجع وذلك باعتباره شخصية معاصرة، وإلى جانب صعوبة فهم النص الفلسفي في بعض الأحيان، وهذا نظرا لعمقه الفلسفي وتحليله الدقيق للمنهج العلمي.

الفصل الأول

الخلفيات الأساسية والمنطلقات النقدية لفكرة اللا منهج عند بول فيرابند

مدخل:

إن ابستيمولوجيا فيرابند تعكس بلا شك عبقرية فكرية غربية معاصرة في فلسفة العلوم، حيث تمكنت من إبداع مفاهيم ومواقف وأفكار جريئة تتجاوز ما عرفناه من الابستيمولوجيا الكلاسيكية، حيث استطاع فيرابند نقل ماهو سياسي إلى ماهو معرفي علمي، ما أتاح بناء تصور فكري جديد للمعرفة العلمية ومناهجها، ومن بين هذه المفاهيم المبتكرة نجد فكرة اللامنهج (الفوضوية)، ومفهوم النسبية واللامقياسية وغيرها، التي تعمل على تجاوز التصور الابستيمولوجي الكلاسيكي.

فإن فكرة التعددية التي قدمها فيرابند تشكل نقلة نوعية في النظرة السائدة للمنهج، حيث تدعو إلى التحرر من القيود والقواعد الثابتة التي تفرضها المناهج التقليدية، ومفهوم النسبية ويقدم من خلالها نقداً للتصور القديم الذي يعتبر المعرفة العلمية مقياساً مطلقاً للحقيقة، حيث يؤكد على أن المعرفة تتأثر بالعوامل الثقافية والاجتماعية والتاريخية، ولا يمكن تحقيق قياسية مطلقة في العلوم.

بهذه المفاهيم المبتكرة، تحدى فيرابند التصور الابستيمولوجي الكلاسيكي القائم، ونقل الاهتمام من مسألة المنهج إلى مسألة اللامنهج، فالفكر العلمي المعاصر يبحث الآن عن طرق جديدة للتعامل مع التعقيدات والتنوع في المعرفة، ويسعى لفهم أعمق للظواهر والمفاهيم التي تتجاوز الإطار التقليدي للمنهج.

هذا ما يدفعنا في الفصل الأول إلى محاولة الإجابة عن السؤال التالي: **فيما تتجلى الخلفية المؤسسة لفكرة الفوضوية عند فيرابند؟ وفيما يتمثل مشروعه النقدي الفوضوي؟**

المبحث الأول: بول فيرابند حياته، مؤلفاته ومساره الفكري

بول فيرابند "Paul Feyerabend" فيلسوف من أصل نمساوي مختص في العلوم والإبستيمولوجيا ولد في فيينا عام 1924م، ودرس في جامعتها، ثم ارتحل إلى انجلترا ليتابع دروس كارل بوبر ، ودرس بعد ذلك في جامعة كاليفورنيا بركلي. عرف شهرة دولية مع كتابه " ضد المنهج " 1975م الذي أرسى فيه الأساس ل "فينومينولوجيا فوضوية " ونقد بصرامة التجربة الإنكلوساكسونية المعاصرة ولم يوفر حتى عقلانية بوبر.[1]

وبعد أن أكمل دراسته الثانوية إلتحق بالجيش الألماني، وقد أصيب عام 1945م أثناء الحرب العالمية الثانية برصاصة في العمود الفقري حيث أصيب بعدها بشلل في الجزء الأسفل من جسمه تسبب في عدم مقدرته على السير بقية حياته إلا بمساعدة عصا يتوكأ عليها.[2]

إلتحق "فيرابند" بمعهد فيمار في ألمانيا حيث درس الإنتاج المسرحي وتاريخ المسرح والغناء وكان اليساريون يلعبون في ذلك المعهد مسرحيات بريخت حيث يقوم المشاهدون بعد إنتهاء العروض بمناقشة وتقييم ما شاهدوه ثم حصل على إجازة من جامعة بريستول بإنجلترا درس فيها فلسفة "فتجنشتين" وميكانيك الكم، وقد رحل "بول فيرابند" بعد ذلك إلى بيركلي بالو.م.أ، ليعمل أستاذا بجامعة كاليفورنيا وأستقر به المقام هناك حتى تقاعده عن العمل عام 1990م وهناك أخذ يكرر مجموعة من الأفكار ظلت حتى نهاية حياته العمود الفقري لكتاباته، بحيث بدا ناقما على النظام التعليمي الغربي.[3]

درس التاريخ والفيزياء وعلم الفلك في عام (1946-1951م)، واشترك في تلك الآونة في تأسيس نادي للفلسفة تحت اسم "دائرة كرافت" وذلك نسبة إلى فيكتور كرافت.

اشتهر "فيرابند" بعدة مؤلفات، أبرزها "ضد المنهج" الذي نشره عام 1975م، والذي نال شهرة كبيرة وترجم إلى عدة لغات منها اللغة العربية مؤخرا، إضافة إلى كتب أخرى هي[4]:

- وداعا أيها العقل 1988م
- ثلاث محاورات في المعرفة 1991م
- العلم في مجتمع حر 1978م

---

[1] جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 2006م، ص 454.

[2] تدهوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، تر: نجيب حصادي، الجزء الأول من حرف أ إلى حرف ط، المكتب الوطني للبحث والتطوير، ليبيا، د. ط، د. س، ج2، ص 693.

[3] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، تر: محمد أحمد السيد، منشأة المعارف الإسكندرية، د.ط، د.س، ص7.

[4] جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، المرجع السابق، ص 454.

- أوراق فلسفية 1981م

معروف عن شخصية فيرابند أنه كثير الإثارة شديد النقد، وأنه مثير للجدل والسجال، كما عرف بشكه الكبير في الوصول إلى الحقائق وفق خطة مضبوطة، ضمنها نظرية الفوضوية التي عاش حياته يدافع عنها.[1]

إن "فيرابند" هو أحد الثوار في ميدان تاريخ العلوم، وثوريته مؤسسة على أطروحة عرفت باسم "عدم إمكانية المقارنة"، هذه الأطروحة هي بمثابة حرب على الاتجاه العلمي السائد الذي عرف باسم (الواقعية العلمية).[2]

توفي عن عمر يناهز سبعين عاما في فبراير (فيفري) 1994م بعد أن عاش حياة حافلة قام فيها بوضع العديد من النظريات و نقد الكثير من الفلسفات، وقد اكتسب "بول فيرابند" شهرته من نزعته النسبية أو بالأحرى الشكية في قواعد المنهج العلمي المتعارف عليها، قام بالدفاع عن أفكاره حتى أواخر سنوات حياته.[3]

المبحث الثاني: الخلفية الفكرية لبول فيرابند:

من المتعارف عليه أن أي فلسفة لها منطلقات ومبادئ تشكل الجانب المعرفي لها، ولذلك حاولنا الكشف عن أهم الخلفيات التي شكلت فكر بول فيرابند، فما هي هذه المنطلقات والخلفيات؟

1- الخلفية الفلسفية:

1-1 النزعة السفسطائية:

لقد تأثر فيرابند بشدة بالنزعة السفسطائية، وخاصة فيما يتعلق بفكرة الشك ونسبية المعرفة والحقيقة، وذلك انطلاقا من اعتبارهم أن الفرد في حد ذاته يشكل معياراً ومقياساً لكل معرفة، مما دفعه إلى التشكيك في كل ما هو مطلق ورفض جميع قوانين العقل والعقلانية التي تدعي تحقيق اليقين، إذ يرفض فيرابند بشكل قاطع الاعتقاد بوجود حقائق مطلقة ويعتبر الحقيقة نسبية وقابلة للتغيير حسب السياق والتجربة الفردية. فقد شك فيرابند في المنهج ورفض صرامة قوانينه وقواعده التي تقيد حرية الإنسان

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص08.

[2] توماس كون، بنية الثورات العلمية، تر: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيت النهضة، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ص29.

[3] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص03.

وتعيق تقدم العلم والإبداع. "ومن هنا امتدح نزعة بروتاغوراس الشكية لأنها تهتم بفكرة تعدد القيم والتقاليد دون أن يفرض أن رؤية الفرد الذاتية أو عاداته وتقاليده هي الوحيدة الصادقة".[1] حيث نجد بأن جل إسهامات فيرابند الثورية في مجال فلسفة العلم نابعة من النزعة الشكية السفسطائية.

2-1 جون ستيوارت مل: (j.s mill 1806 – 1873)

تأثر فيرابند بالفيلسوف الإنجليزي جون ستيوارت مل وفلسفته المدافعة عن الحرية ورفضه للقمع السياسي والاجتماعي والعقلي. يروج فيرابند لحماية حرية الرأي والتعبير، ولا يعتبر الحماية من طغيان الحاكم كافية، بل يؤكد على ضرورة حماية الفرد من طغيان الرأي أيضاً، كما وضح مل في كتابه "عن الحرية". يعتبر فيرابند الحرية مصدر إلهام له، ويدافع عن مجتمع يتسم بالحرية والتعايش بين التقاليد المختلفة. يدعو إلى تقليل سيطرة القيم على المجتمع، وإلغاء الالتزامات التي يفرضها العلم والعلماء في سياق العقلانية. يرى أنه يجب منح الفرصة لجميع المعارف والتقاليد والقيم للمساهمة في تقدم العلم والمجتمع على حد سواء.[2]

3-1 نيتشه: (F.Nietzsche 1844-1900)

تأثر فيرابند بالفيلسوف الألماني نيتشه، الذي يعتبر واحداً من أبرز الفلاسفة الذين اعتمدوا موقفاً معارضاً ورافضاً لمشروع الحداثة الغربية، التي تعتمد بشكل كبير على العقلانية العلمية والمادية. حيث نشأت تيارات فكرية تسعى لإعادة الاعتبار للأسطورة واللاعقل، وتسعى لتجاوز فكرة النسق الذي فرضته العقلانية والعقل. تلك التيارات تسعى لاستكشاف خليط من الأنساق والمعارف المتنوعة، وتروج لإعادة التوجه نحو أفكار جديدة ومختلفة عن النهج التقليدي الذي يعتمد فقط على العقل والعقلانية. " حيث يذهب نيتشه إلى أن المعرفة النافعة خليط لا شكل له من الانطباعات والعلاقات، فإذا تصورنا أن هذا الخليط يمثل الواقع الحقيقي أو الصيرورة نكون قد جانبنا الصواب".[3]

---

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص25.

[2] العالم عبد الحميد، إشكالية المنهج في الفلسفة المعاصرة من الأحادية إلى الفوضوية بول فيرابند أنموذجا، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد12، العدد 01، مارس 2024، ص ص 1100-1101.

[3] عبد السلام صفاء علي جابر، محاولة جديدة لقراءة فريديريك نيتشه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999م، ص294.

ومن خلال هذا النقد الموجه للعقلانية ومفهومها، فقد استطاع أن يتجاوز العقل واتجه نحو مفهوم اللامعقول، فهو يؤكد أن العقلانية ليست سوى قناع يستخدمه أصحاب الأيديولوجيات للتعبير عن مواقفهم الخفية، وأن هناك جوانب أعمق وأكثر تعقيداً في تجربة الإنسان وفهم العالم، وهذه الجوانب لا يمكن تجسيدها بوساطة العقل فقط.

2- الخلفية العلمية:

لفترة طويلة، سيطرت الفيزياء الكلاسيكية على الفكر العلمي، واستندت في تفسيراتها إلى الاعتقاد القوي بالحتمية والعقل، ومع ظهور نظريتي النسبية والكوانتم، تحطمت ثقة الإنسان في تلك الاعتقادات وتحولت، هذا المشهد حفز فيرابند لاستكشاف جوانب اللاعقلانية المتواجدة فيهما.

2-1 فلسفة ماخ العلمية:

كان أرنست ماخ (Ernst.Mach 1838-1916) يعنى بالعديد من المسائل الفيزيائية وقام بدراسة كيفية نشأتها، وكانت لهذه الدراسة قيمة علمية في إظهار تأثير المنهج واختلافاته على تطور العلم، واهتم فيرابند بشكل خاص بهذه المسألة من خلال رفضه لبعض مناهج العلوم التقليدية، كما أن ماخ اهتم أيضاً بموضوع المعرفة الإنسانية وأعتبرها نسبية وغير ثابتة، وأن المعرفة الإنسانية في تطور مستمر وأنها تتغير مع تطور العلوم والمفاهيم الجديدة. هذا المفهوم يتماشى مع رؤية فيرابند حول نسبية المعرفة العلمية، ففيرابند يعتبر أن المعرفة العلمية ليست قطعية أو نهائية، وإنما هي قابلة للتطور والتغير مع تقدم التكنولوجيا وظهور مفاهيم جديدة.[1]

إن ما يميز فكر ماخ هو تفتحه على مجالات المعرفة المتنوعة. على الرغم من اهتمامه الكبير بالفيزياء، إلا أنه أيضاً اهتم بعلاقة علم النفس بالفيزياء وبحث في تأثير العوامل الفيزيائية على العقل والوعي البشري. كما تميزت فلسفة ماخ بالطابع النقدي، حيث قام بنقد الميتافيزيقا ورفض الاعتماد الكلي على المطلقية والمفاهيم الثابتة، وأيضاً نزعته الشكية التي دفعته للتساؤل والتحقيق الدائم في الحقائق والمفاهيم وهذا ما أكده آينشتاين في قوله: " ولقد تأثرت كثيرا بأعمال ماخ عندما كنت طالبا، ففي نظري إن الحجم الحقيقي لماخ يتمثل في استقلاليته وريبته ".[2]

---

[1] العالم عبد الحميد، إشكالية المنهج في الفلسفة المعاصرة من الأحادية إلى الفوضوية بول فيرابند أنموذجا، مرجع سابق، ص ص 1101-1102.

[2] المالكي علي، الأسس العلمية والفلسفية لنظرية النسبية المحدودة عند آينشتاين، الدار التونسية للكتاب، تونس، 2013م، ص 111.

2-2 نظرية الكوانتم: (Quantum)

هي نظرية في الفيزياء تعنى بدراسة طبيعة المادة والظواهر الفيزيائية على المقياس الدقيق جداً والمتناهي في الصغر، تركز هذه النظرية على تفسير سلوك الجسيمات الدقيقة مثل الذرات والإلكترونات والفوتونات، وتوفر إطاراً نظرياً لفهم تفاعلاتها وحركتها، ويعرفها عبد الفتاح محمد بدوي " نظرية الكوانتم التي تبحث في طبيعة المادة المتناهية في الصغر، أي النظرية التي تدرس حركة الجسيمات دون الذرة".[1]

تُعد طبيعة الضوء من بين أهم مواضيع البحث في نظرية الكم. وقد شهد هذا المجال تبايناً في النظريات المطروحة، حيث قدم ماكس بلانك النظرية الجسيمية التي تستند إلى مبدأ الانفصال، في حين اعتمدت النظرية الموجية التي يُمثِّلها فيرنر هايزنبرغ (Werner. Heisenberg 1901-1976) مبدأ الاتصال وتؤكد على الطبيعة الموجية للضوء.[2]

لقد بنى كل فريق نظرياته واعتقاداته حول طبيعة الإلكترون على دراسات استنباطية واستنتاجية. ومع ذلك، لا أحد يستطيع الجزم بالحقيقة المطلقة لطبيعة الإلكترون، نظراً لاستحالة رؤيته مباشرة. لذلك لجأ العلماء إلى الاعتماد على الاحتمالات والتقديرات في تفسير النتائج التي توصلوا إليها. وبالتالي، لا يمكن الجزم باليقين والحقيقة العلمية المطلقة في هذا الموضوع، وتفاقمت حدة الأزمة في مجال الفيزياء الكمية مع اكتشاف هايزنبرغ لمبدأ عدم اليقين، مما أدى إلى فتح باب الجدل العلمي والفلسفي، وبالتالي أصبحت النظرية الكمية عرضة لتفسيرات فلسفية كثيرة ومتناقضة.[3]

لقد أبدى فيرابند إعجابه بفكرة التعددية واعتبرها سمة من سمات العلم، حيث يعتقد أنها تعد الأسلوب الأفضل لتقدم العلم. إذ يرى أن قوة أي نظرية تكمن في قدرتها على المنافسة مع النظريات الأخرى في مجالها، فمن خلال هذا التنافس يتم تحسين الفهم والتطور العلمي.

3-2 النظرية النسبية:

في بداية القرن العشرين، ظهرت نظرية النسبية التي قدمها آينشتاين (A. Einstein 1879-1955)، والتي قدمت تصوراً جديداً لفهم حركة الكون والمادة. تعارضت هذه النظرية مع التصورات

---

[1] عبد الفتاح محمد بدوي، فلسفة العلوم ومستقبل الإنسان إلى أين؟، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م، ص 220.

[2] العالم عبد الحميد، إشكالية المنهج في الفلسفة المعاصرة من الأحادية إلى الفوضوية بول فيرابند أنموذجا، مرجع سابق، ص 1102.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

السابقة التي قدمها نيوتن. أوضح آينشتاين أن هناك الكثير من جوانب العالم لا تزال غامضة وغير معروفة، وعرض فكرة الزمان النسبي والمكان النسبي بدلاً من الزمان الكلي المطلق. يعني ذلك أن الزمان والمكان ليسا مفاهيم ثابتة ومطلقة، بل يتأثران بالسرعة والجاذبية وتوزيع المادة في الكون. قام آينشتاين بتجاوز المفهوم المطلق للأشياء وأظهر أنه لا يوجد زمان مطلق أو مكان مطلق، ولا وجود لكتلة مطلقة. " وبذلك اعتبرت نظرية النسبية بمثابة انقلاب ابستمولوجي قائم على رفض مفهوم المطلق والشك في العديد من المسلمات التي كانت ترتكز عليها الفيزياء الكلاسيكية، فالزمن يختلف باختلاف المحاور المرجعية".[1]

المبحث الثالث: المنطلقات النقدية

1- نقد فيرابند للعقلانية المعاصرة:

1-1 نقد الوضعية المنطقية:

أولت الوضعية المنطقية اهتماماً خاصاً بالمعرفة المحصورة في المجال العلمي فقط، حيث سعت لتحرير العلم من الميتافيزيقا واعتبرته نظاماً شاملا يستند إلى أسس منطقية متسقة وقواعد ثابتة. كما أولت اهتماماً بمنطق تبرير النظرية العلمية.

" إلا أن فيرابند انتقد هذا التصور، واعتبر أن العلم مشروع يقوم على اللا إتساق والتعقيد وتحكمه مؤثرات أخرى غير موضوعية تجعله مليئاً بالتناقضات."[2]

" وقد توصل فيرابند إلى ذلك من خلال الاستقصاء التاريخي للعلم الذي يكشف أن العلم غير مقيد بمنهج معين ومحدد، بل إن إتباع قواعد معينة والالتزام بها يعيق التقدم العلمي. كما أن التبرير لا يكون أبدا إجراءا موضوعيا تاما، فهو يحتوي على العديد من العناصر الذاتية."[3]

1-2 نقد قابلية التكذيب عند كارل بوبر: (K.popper 1902-1994)

لقد تأثر "فيرابند" كثيرا وأعجب بكارل بوبر وفلسفته إلا أن هذا الإعجاب لم يدم طويلا ليتحول فيرابند إلى أشد المنتقدين لبوبر وفلسفته. " كان "فيرابند" في بداية مشواره متأثرا ب"كارل بوبر"، الذي كان يؤمن

[1] عبد الرحمان مرحبا، آينشتاين، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1983م، ص 74.

[2] بول فيرابند، ضد المنهج، تر: ماهر عبد القادر محمد علي، طبعة للطالب، الإسكندرية، 2005م، ص 392.

[3] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 217.

أن ليس هناك طريق ملكي للنجاح، بل نحن نتعلم بالمحاولة والخطأ، غير أنه سرعان ما تحول من مناصر "لبوبر" إلى خصم له."[1]

و يتجلى إعجاب فيرباند الشديد في توافقه مع فكرة كارل بوبر والتي تتمثل في النقد الذي وجهه هذا الأخير لكل من الوضعية المنطقية و المنهج الاستقرائي. حيث أولى بوبر اهتماما كبيرا بفكرة النقد والتفتح على جميع الإقتراحات التي يمكن أن توصلنا إلى إيجاد حلول للمشكلات العلمية الراهنة، حيث يلتقي مع فيرباند في هذه الفكرة والذي يدعو من خلالها إلى التفتح على جميع التقاليد وذلك بإتاحة الفرصة للجميع من أجل المشاركة في نمو وتطور العلم.[2]

وعلى الرغم من ذلك فقد إنتقد فيرابند منهج بوبر ووصفه بالمنهج الساذج ووصف فلسفته بالدوغمائية، حيث يعتقد بأن بوبر يحرص بشكل مبالغ في وضع القواعد والمعايير الثابتة و يتجلى ذلك تحديدا في معيار قابلية التكذيب والذي اعتبره فيرابند بأنه أسلوب أقرب إلى النقد منه إلى البرهنة أو الكشف، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يرى بأن الطريقة التي وصفها بوبر لا تنطبق على جميع النظريات بل إن الكثير منها لا تقبل التكذيب. " غير أن فيرابند انتقد بوبر واصفا منهجه بالساذج وفلسفته بالدوغمائية انطلاقا من حرص بوبر على وضع قواعد ومعايير وتحديدا معيار القابلية للتكذيب الذي اعتبره فيرابند أسلوبا للنقد وليس للبرهنة أو الكشف، إضافة إلى أن الكثير من النظريات لاتقبل التكذيب بالطريقة التي وصفها بوبر."[3]

كما يعتقد فيراند بأن الصرامة في التكذيب التي يتخذها بوبر في منهجه تقضي بشكل مباشر على تطور العلم وتحد من انطلاقه. " كما أن التكذيب الصارم يقضي على العلم ولا يسمح له بالانطلاق."[4] وبذلك فإن المعايير التي قدمها بوبر تتناقض مع تاريخ العلم بل ويعتقد فيرابند بأنها لا تقدم أي إضافة للعلم، وأن قواعد المنهج لبوبر لا تساهم بشكل كبير في تقدم وتطور العلم بل على العكس تماما فهي

---

[1] يمنى طريف الخولي، مفهوم المنهج الفلسفي، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2000م، ص 425.

[2] العالم عبد الحميد، إشكالية المنهج في الفلسفة المعاصرة من الأحادية إلى الفوضوية بول فيرابند أنموذجا، مرجع سابق، ص 1104.

[3] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، تر: محمد أحمد السيد، منشأة المعارف الإسكندرية، د.ط، 1997، ص 19.

[4] بول فيرابند، ضد المنهج، مصدر سابق، ص 264.

تشكل عائقا كبيرا في تقدمه. " وبهذا فالمعايير التي قدمها بوبر ليست لها قيمة بالنسبة للعلم، وهي متناقضة مع تاريخ العلم. إن قواعد بوبر المنهجية لا تساعد على تقدم وتطور العلم بقدر ما تعيقه."[1]

ويستند فيرابند في قوله على ما قام به غاليلي من خلال انتهاك تكذيبات النظرية الكوبرنيكية، وحيث تمكن من تجاوز جميع تلك التفنيدات دون لجوءه إلى التكذيب.

وقد توصل فيرابند إلى نتيجة مفادها أنه مهما كانت صيغة وشكل المنهج العلمي و بالاضافة إلى القواعد المنهجية التي يتبعها فلاسفة العلم على اختلاف فكرهم سواء كانو تكذبيون أم استقرائيون فإنها دون شك تتعارض كليا مع مصلحة العلم.

3-1 نقد إشكالية تطور العلم عند توماس كون: (T.cohn 1922-1979)

لقد كان لتوماس كون تأثير كبير على فيرابند، الذي أعجب بأفكاره وبالأخص فكرة اللامقياسية حيث أثرت فكرته بشكل كبير على فيرابند وفهمه للعلم، وتعني اللامقياسية أن النظريات العلمية غير قابلة للقياس بنفس المقاييس التي تستخدم لتقييمها والحكم عليها، وبمعنى آخر، لكل نظرية إطارها ومفاهيمها الخاصة بها، ولقد اعتبر فيرابند هذه الفكرة أساساً لتقدم العلم، حيث أدرك أنه لا يمكننا فهم وتقييم النظريات العلمية من خلال مجرد تطبيق نفس المقاييس والقواعد التي نستخدمها للحكم على الأمور العادية في الحياة اليومية.[2]

بدلاً من ذلك، يجب أن نفهم النظريات العلمية في سياقها الخاص وفقًا للمفاهيم والأطر التي تنشأ فيها وهذا يسمح لنا بفهم التعقيدات والتنوع الذي يمكن أن تتبناه النظريات العلمية وتدفعنا للتفكير بشكل جديد وإيجاد حلول مبتكرة.

وإن كان توماس كون يربط تطور العلم بظاهرة الثورات العلمية، ويعني بذلك أنه عندما يواجه العلم مشكلات أو تحديات لا يستطيع حلها بواسطة النماذج الإرشادية القديمة، يحدث تحول جذري في

[1] بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، تر: السيد نفادي، مراجعة سمير حبا صادق، المجلس الأعلى للثقافة، 2000م، ص 264.

[2] بوعلام الزهرة، الإبستيمولوجية الفوضوية عند بول فيرابند والتفسير اللاعقلاني لتطور العلم، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 10، العدد 02، ماي 2022، ص 564.

الفكر العلمي وتظهر نماذج إرشادية جديدة تستطيع تفسير هذه المشكلات بشكل أفضل، ويتم ذلك من خلال التغيير في المفاهيم والأطر النظرية التي يستند إليها العلماء في تفسير الظواهر الطبيعية.[1]

"ربط كون تطور العلم بالثورات التي تحدث على مستوى هذا العلم، والتي يتم بموجبها تغيير في النماذج الإرشادية، حيث يحل نموذج إرشادي جديد محل نموذج إرشادي قديم عجز عن إيجاد حل للمشكلات العلمية القائمة والمستجدة، وهو ما يثبته تاريخ العلم، خاصة في مجال العلوم الفيزيائية والرياضية"[2]

"فإن فيرابند عارض عقلانية كون المرتبطة بالنزعة التاريخية كما يتضح في كتابه بنية الثورات العلمية. كما انتقده في فكرة البراديغم أو النموذج الإرشادي، لأنه يحصر النشاط العلمي في إطار نموذج واحد، مما يحد من حرية الباحث ويعرقل الحركة التطورية للعلم، لذلك رفض فيرابند تعددية كون الإرشادية التي سرعان ما تجمع على قبول نموذج إرشادي واحد. وفيما يتعلق بربط كون تقدم العلم بالثورات بين فيرابند أن هذا الأمر لم يظهر على مستوى العلوم السابقة، بدليل ما جاء به نيوتن حول نظرية المادة، إذ لم يظهر أي نموذج أثناء الفترة التاريخية الطويلة لنظرية المادة."[3]

4-1 نقد الميثودولوجيا البحثية عند امري لاكاتوش: (I.Lakatos 1922-1974)

على الرغم من أن فيرابند يتفق مع امري لاكاتوش في بعض الأفكار إذ تلتقي وجهات نظرهما في ما يخص منهجية برامج الأبحاث العلمية والتي سبق ونقدها لاكاتوش وتوصل إلى نتيجة يمكن القول عليها انها تتشابه مع ما توصل اليه فيرابند من نقده للمناهج العلمية كذلك، بل إن فيرابند يؤكد لنا على أهمية فلسفة لاكاتوش ومدى أهميتها في الفكر المعاصر وخاصة في الفلسفة العلمية ومناهج البحث، وقد أقر فيرابند بتأثره الكبير بفلسفة لاكاتوش حيث يقول: " ينتقد لاكاتوش المناهج الموجودة، ويصل إلى نتيجة تتطابق تقريبا مع نتيجتي."[4]

---

[1] العالم عبد الحميد، إشكالية المنهج في الفلسفة المعاصرة من الأحادية إلى الفوضوية بول فيرابند أنموذجا، مرجع سابق، ص 1105.

[2] توماس كون، بنية الثورات العلمية، تر: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيت النهضة، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ص131.

[3] ماهر عبد القادر محمد، نظرية المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1985م، ص 80.

[4] بول فيرابند، ضد المنهج، المصدر السابق، ص 277.

إلا أنه سرعان ما ينتقده، بل ويعيب عليه إيمانه الشديد بالمعايير الثابتة التي تقيس تقدم برامج بحث ما أو تأخره، وهو ما يرفضه فيرابند رفضا قاطعا، ففي اعتقاده أنه لا يجب أن نقيد ونحدد نجاح البحث العلمي استنادا إلى معايير ثابتة غير قابلة للتغيير، ويعتبر فيرابند بأن لاكاتوش ليس ميثودولجيا بل في حقيقة الأمر اقتصرت مساهمته في مجال الميثودولوجيا بتقديمه لبعض المفاهيم فقط.

إن فيرابند يرفض جميع المحاولات الابستيمولوجية التي تهدف إلى بناء نظرية يكون هدفها الوحيد هو عقلنة الممارسة العلمية، حيث يرى فيرابند أن العلم لا يمكن أن يوضع في إطار عقلاني أو يتم تقييده بالقواعد التي فرضتها الميثودولجيات المعاصرة، وبالأخص برامج البحث العلمي، بل يعتبر العلم نشاطاً ومغامرة ذهنية متحررة تتجاوز حدود القواعد المحددة ولا تخضع لأي قيود، " لقد رفض فيرابند كل محاولة ابستمولوجية تسعى إلى بناء نظرية تستهدف عقلنة الممارسة العلمية، فالعلم في نظره لا يمكنه أن يتقيد بالأطر العقلانية، التي فرضتها الميثودولوجيات المعاصرة، بما فيها برامج البحث العلمي، بل هو نشاط ومغامرة ذهنية متحررة تتجاوز كل الحدود ولا تخضع لأي قواعد."[1]

المبحث الرابع: مفهوم المنهج وأهميته

1-1 مفهوم المنهج:

أ/ لغة: المنهج هو الطريق المستقيم الواضح... نهج الطريق بينه وسلكه.[2] وجاء في لسان العرب "النهج هو الطريق.. وانتهج الطريق صار نهجا .. ونهجت الطريق أبنته ووضحته... ونهجت الطريق سلكته".[3] وقد ورد في القرآن الكريم " لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً " المائدة الآية 48.

وعرفه جميل صليبا في معجمه: "هو الطريق الواضح المستقيم الذي يفضي بصحيح السير فيه إلى غاية مقصودة".[4]

---

[1] بول فيرابند، ضد المنهج، المصدر السابق، ص 275.

[2] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط4، 2004م، ص 996.

[3] ابن منظور، لسان العرب، المجلد 13، دار صادر، بيروت، ط3، 2004م، ص 365.

[4] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1973م، ص 21.

ب/ إصطلاحا: للمنهج مفاهيم عديدة، والتي تم تحديدها من قِبَل الفلاسفة. حيث أنه السبيل الذي يقودنا إلى فهم الأشياء والوصول إلى النتائج المطلوبة، إن المنهج هو الطريقة التي يستخدمها الباحثون لبلوغ غايتهم المحددة "هو وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة".[1] ويعد هدفًا لكل باحث. ولذلك، يتعين على الدارسين اختيار منهج يتناسب مع طبيعة بحثهم لتحقيق أهدافهم.

المنهج هو السبيل الواضح الذي يوجهنا نحو تحقيق النتائج المؤكدة والوصول إلى الأهداف المجهولة "هو الطريق الواضح والسلوك البين والسبيل المستقيم".[2] إنه السلوك البين الذي يمكن لأي باحث أن يتبعه واعتماده كمادة تعليمية أساسية لتحقيق أهداف تربوية. المنهج يتضمن مجموعتين، الأولى تتعلق بالاستفادة من المعرفة المستمدة من التراث الثقافي، حيث يجب أن يستمد الباحث أفكاره من تراثه الثقافي الذي نشأ فيه وذلك من خلال قيمة الذات الموضوعية. أما المجموعة الثانية، فتتعلق بالخبرات التي يكتسبها الإنسان بنفسه من خلال تجاربه وتفاعلاته الشخصية.

والمنهج هو الفن الذي يساعدنا على تنظيم سلسلة من الأفكار المتعددة، سواء لكشف الحقيقة عندما نكون غير ملمين بها، أو لإثباتها للآخرين عندما نكون على دراية بها. حيث عرفه عبد الرحمان بدوي بأنه: " فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون جاهلين بها، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين".[3] كما عرفه مسعود حسين التائب بأنه "مجموعة من الخطوات والإجراءات العلمية الصارمة والمنضبطة والمنظمة التي يستخدمها الباحث في رحتله البحثية بغية فك الغموض الذي يحيط بالظواهر والمشكلات التي يقوم بدراستها وذلك بهدف الوصول إلى النتائج والإستنتاجات المتعلقة بها."[4]

ومن بين التعريفات أيضا: " هو مجموعة من القواعد التي يتبعها الباحث في دراسته للمشكلة من أجل اكتشاف الحقيقة، أو هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار أو الإجراءات من أجل الكشف عن الحقيقة التي نجهلها، أو من أجل البرهنة للآخرين الذين لا يعرفونها ".[5] فهو مجموعة من التدابير والإجراءات التي يتبعها الباحث في دراسته لمشكلة معينة، بهدف اكتشاف الحقيقة، حيث يعتبر الأسلوب

---

[1] إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة، د. ط، 1403ه-1983م، ص195.

[2] مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، د. ط، 2007م، ص 435.

[3] عبد الرحمان بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت،1977م، ص 3-4.

[4] مسعود حسين التائب، البحث العلمي قواعده وإجراءاته، مناهجه، المكتب العربي للمعارف، 2018م، ص 222.

[5] عمار بوحوش، محمد محمود الدنيات، مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999م، ص 99.

المنهجي أداة تنظيمية تهدف إلى ترتيب سلسلة من الأفكار والإجراءات بطريقة صحيحة، وذلك للكشف عن الحقيقة التي يكون الباحث جاهلًا بها، أو لإثباتها للآخرين الذين قد يجهلونها، كما يساعد المنهج الباحث في توجيه استفساراته وتحليل المعلومات وجمع الأدلة والوصول إلى استنتاجات موثوقة ومدروسة.

منذ القدم، ظهرت تساؤلات حول المنهج وتناولها الفلاسفة اليونانيون مثل أرسطو. وفي القرن السابع عشر، اهتم الفلاسفة المحدثون بالمنهج، ومن بينهم فرانسيس بيكون. ومن وجهة نظر أندريه لالاند، يعتبر المنهج مجهوداً يبذله الباحث للوصول إلى غاية محددة. يشير إلى أن المنهج يمثل الطريقة التي يستخدمها الباحث لتحقيق أهدافه والوصول إلى نتائجه المرجوة. وبالتالي، يعتبر البحث واستخدام المنهج أداة أساسية لتحقيق المعرفة والتقدم في مجالات مختلفة، ويذكر أن "المنهج إشتقاقا "المتابعة" وتاليا المجهود لبلوغ غاية بحث دراسة".[1] هو الجهد الذي يبذله الباحث بصورة إرادية ومنهجية، دون أي ضغوطات خارجية، بهدف الوصول إلى غايته المحددة، فهو الطريق الذي يقود إلى تحقيق الهدف المنشود، ويتم اختياره بناءً على اختيارات الباحث ومنهجيته، ولا يتأثر بأي تأثيرات خارجية. بالتالي يعكس المنهج الجهود المبذولة بصورة مدروسة ومنظمة لتحقيق نتائج مرغوبة في مجال البحث "إسم ترتيب على فعل الفكر الذي يكون له حول موضوع واحد...عدة أفكار، وعدة أدلة، وعدة أحكام، فيرتبها على أفضل وجه لجعل الموضوع معروفا، وهذا ما يسمى أيضا منهجا كل ما يجري بنحو طبيعي".[2] فالمنهج هو الأداة التي يعتمدها الباحث في ترتيب الأدلة والأحكام والأفكار تجاه موضوع معين، وبهذا الترتيب يصل إلى النتيجة المرغوبة.

المنهج يُعتبر برنامجاً منظماً للأفكار، يهدف إلى تنظيم العمليات وتجنب الأخطاء، بهدف الوصول إلى نتيجة محددة. يُعتبر أداة أساسية للباحث لزيادة معرفته بموضوع بحثه، حيث يتقدم تدريجياً نحو النتيجة المرجوة. بحسب ديكارت، المنهج هو مجموعة من القواعد التي يجب على الباحث احترامها في دراسته وتساعده على تجنب الأخطاء والوقوع فيها، مما يسهم في ضمان الموثوقية والدقة في النتائج "المنهج عبارة عن القواعد المؤكدة والبسيطة إذا رعاها الإنسان مراعاة دقيقة كان في مأمن من أن يحسب صوابها ما هو الخطأ".[3] هو مجموعة من القواعد التي يتبعها الباحث بدقة وحرص، بهدف الوصول إلى

---

[1] أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ط2، المجلد الأول A–G، منشورات عويدات، بيروت. باريس، 2001م، ص803.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص628.

نتائج يقينية يعمل المنهج كدليل للباحث، حيث يساعده على اتخاذ الخطوات الصحيحة وتجنب الأخطاء في بحثه بفضل هذه القواعد، يصبح من المستحيل أن ينحرف الباحث عن هدفه أو يقع في أخطاء تؤثر سلباً على بحثه. بالتالي، يكون المنهج عنصراً أساسيًا لضمان الدقة في النتائج التي يتوصل إليها الباحث.

فالمنهج هو مجموعة من القواعد التي يتعين علينا اتباعها لتبسيط موضوع البحث وتحديد خطواته بدقة وتفصيل، بهدف الوصول إلى نتيجة مرضية. يعتبر أندريه لالاند المنهج كتصور مبدئي لتخطيط البحث، حيث يضع الباحث تصوراً مسبقًا في بداية البحث لتحديد برنامج مناسب يوجهه في سير بحثه "تكاد دوما كلمتا منهجيّ، منهجيّا تتضمنان تصورا فكريا مسبق للخطة إتباعها وبنحو أخص الطريقة التقنية للحساب أو التجريب، طريقة أدنى المربعات طريقة "بوغندورف Poggendorff"* وأيضا علم النبات أي نسق تصنيفي طبيعي.[1] فهو يسعى لتوضيح أن منهجيّ، منهجيّا هما تصوّر فكري مسبق إذ يتطلب من الباحث تحديد الأساليب والأفكار والتصورات المسبقة للخطة التي يجب عليه اتباعها لتحقيق هدفه، حيث يتعين على الباحث تحديد الخطوات والأساليب الملائمة التي ستساعده في الوصول إلى النتيجة المطلوبة وذلك عن طريق استخدام المنهجية المناسبة وتوجيه جهوده وفقًا لها.

فهو الأداة التي يستخدمها الباحث لتحقيق أهدافه العلمية وتنظيم عمله البحثي بشكل فعال ومنهجي: "وسيلة لتحقيق الهدف، وطريقة محددة لتنظيم النشاط وبالمعنى الفلسفي الخاص، كوسيلة معرفة. المنهج طريقة للحصول على ترديد ذهني للموضوع قيد الدراسة ويمكن أكثر الشروط جوهرية للتطور الناجح للمعرفة في التطبيق الواعي للمنهج العلمي".[2] فهو الأسلوب الذي يستخدمه الإنسان لتحقيق أهدافه في دراسته، حيث يتبنى طرقًا وأساليبًا محددة للحصول على المعلومات المطلوبة. كما يعتبر وسيلة هامة لتنظيم وتوجيه الجهود البحثية، مما يساعد الباحث على الوصول إلى نتائج موثوقة ومرضية في مجال دراسته.

2-1 أهمية المنهج:

يظهر اهتمام الفلاسفة والعلماء القدماء والمحدثين بشكل واضح وكبير بالمنهج ويعتبرونه أساساً هاماً في العلم والبحث العلمي، فعلى سبيل المثال، استخدم أرسطو منهج الاستنتاج الصوري في دراسته

---

*طريقة بوغندورف Poggendorff: وهي إستعمال المرآة المتحركة لقياس الزوايا.

[1] أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مرجع سابق، ص 804.

[2] روزنتال ويودين، وآخرين، الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، دار طليعة للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، د.س، ص503.

حيث قام بتطوير منهجية تعتمد على الاستنتاج من الأمثلة المرئية والتجارب العملية. كما أعطى الأولوية للمنطق واعتبره أداة قياسية للتفكير السليم، وجعل من قواعده التي تحكمه بمثابة أرجانون أو آلة لجميع العلوم، وأنه إذا اتبعنا قواعده فإن تفكيرنا سيكون صحيحاً، وإذا خالفناها فإننا سنقع في الخطأ.

بالإضافة إلى ذلك، يعتبر بعض فلاسفة العلم المعاصرين أيضاً أهمية المنهج في البحث العلمي. فالمنهج العلمي الحديث يشتمل على خطوات محددة لجمع البيانات وتحليلها واستنتاج النتائج، وتوفر هذه الخطوات إطاراً منهجياً لتنظيم الأفكار والاستدلالات وضمان الدقة والموثوقية في النتائج.

إذ يمكن القول أن الاهتمام بالمنهج في العلم يساهم في تطور المعرفة وتقدم البحث العلمي، حيث يساعد في توجيه العلماء نحو استخدام أساليب منهجية فعالة وموثوقة للتحقيق في الحقائق والظواهر.

في الفلسفة الحديثة يعد الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت واحداً من الأعلام البارزين فيها ، فقد أولى اهتماماً كبيراً للمنهج في أعماله. خاصة في كتابه الشهير "قواعد المنهج"، الصادر في عام 1637م والذي يعتبر أحد أهم أعماله.

في هذا الكتاب، حدد ديكارت مجموعة من القواعد المنهجية التي يجب على الباحث اتباعها في المعرفة والبحث العلمي. وأكد على أهمية المنهج كجزء أساسي من العملية العقلية والمعرفية، حيث يعتبر ديكارت أن المنهج الصحيح هو الذي يستند إلى الشك والشكوك المرتبطة بها، ويتطلب تحليلًا منهجياً وترتيباً دقيقًا للأفكار والاستدلالات.

كما قدم ديكارت أيضاً مبدأ الشك الشامل " Radical Doubt " كجزء من المنهج، حيث يجب أن يشك الباحث في جميع المعتقدات والمعرفة المسبقة، وأن يبدأ من الصفر للوصول إلى الحقائق المؤكدة بواسطة التفكير الواضح والمنطقي، حيث يعتبر أن المنهج جزءاً أساسياً من العمل الفلسفي والعلمي ويؤكد على أهمية اتباع قواعد منهجية صارمة للتوصل إلى معرفة صحيحة وموثوقة.

وقد عرف المنهج بأنه: " قواعد وثيقة سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يأخذ الباطل على أنه حق، وتبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة بكل الأشياء التي نستطيع إدراكها، دون أن نضيع في جهود غير نافعة، بل هي تزيد ما في النفس من علم بالتدرج".[1] فهو مجموعة من القواعد الصارمة والسهلة التي تضمن عدم قبول الباطل كحقيقة، وتساعدنا في الوصول إلى المعرفة الصحيحة في كل ما يمكننا فهمه، دون أن نضيع وقتنا وجهودنا في أمور غير مجدية. فالمنهج يساعدنا على زيادة معرفتنا تدريجياً وبشكل مستمر، ويساهم في تحقيق نمو ثقافي وفهم عميق للأشياء المحيطة بنا.

[1] رينيه ديكارت، قواعد لهداية العقل، تر: سفيان سعد الله، دار سراس للنشر والتوزيع، تونس، 2001م، ص 371.

بدأ ديكارت بتطبيق المنهج الرياضي على الفلسفة والعلم عن طريق وضع مبادئ أولية يمكن التشكيك فيها بصورة مشروعة. واعتبر أن الحقائق الرياضية هي النموذج المثالي للمعرفة الصحيحة حيث يمكن التوصل إليها بواسطة استنباط منطقي يعتمد على الشك والشكك المبني على الأدلة الواضحة والمفهومات البسيطة.

ثم، قام بتعميم المنهج الرياضي إلى المجالات الأخرى، واعتبر أنه يمكن استخدام الاستدلال الاستنباطي للوصول إلى الحقائق الأساسية والمبادئ العامة التي يمكن من خلالها استنتاج المزيد من النتائج، حيث يمكن القول أن ديكارت استفاد من المنهج الرياضي في بناء منهج العلم الذي يبدأ بتحديد المبادئ الأولية ومن ثم يستخدم الاستدلال الاستنباطي للوصول إلى النتائج المشتقة من تلك المباد

وبعده جاء فرانسيس بيكون (1561–1626)، الفيلسوف وعالم الطبيعة الإنجليزي، الذي قدم منهجًا تجريبيًا استقرائيًا في عمله "الأرجانون الجديد" (Novum Organum) الذي نشر عام 1620. حيث يعتبر هذا الكتاب إحدى أهم أعماله ويعرض فيه منهجه العلمي الجديد.

في "الأرجانون الجديد"، قدم بيكون منهجًا تجريبيًا استقرائيًا يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة العلمية بشكل موضوعي ومنهجي. فقد اعتبر بيكون أن المعرفة العلمية يجب أن تستند إلى الحقائق الصلبة المشتقة من التجربة المكررة والمنهجية، حيث بدأ بيكون منهجه بالتجريب وجمع الحقائق الفردية والتفاصيل الدقيقة من الظواهر الطبيعية. فيعرفه بأنه: " منهج يعتمد على الحواس والتجريب، ويبدأ من جزئيات ليخرج بنتيجة كلية هي قانون من قوانين الطبيعة".[1] ثم، قام باستقراء هذه الحقائق واستنتاج قوانين وقواعد عامة تشرح سلوك الظواهر الطبيعية. وهكذا، ينطلق من الجزيئات والتفاصيل الصغيرة ويصعد تدريجيًا إلى العناصر الأكبر والقوانين العامة.

ويؤكد على أنه قائم على مبدأ الإقصاء فيقول: " يبنى الاستقراء الحقيقي على مبدأ الإقصاء، لكنه لا يكتمل إلا بعد أن يصل إلى مرحلة التجريب".[2] اذ انه استدلال استقرائي حاسم حيث يعتبره منهجًا يعتمد على جمع عدد كافٍ من الوقائع، ثم وضعها تحت الفحص والاختبار. ويتبع هذا النهج تسلسلًا تصاعديًا وتنازليًا، حيث يتم رفض واستبعاد الفرضيات التي لا تتوافق مع تلك الوقائع المؤكدة بواسطة التجربة الحاسمة.

---

[1] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، 2000م، ص 20.

[2] فرنسيس بيكون، الأورغانون الجديد أو: الوسيلة الجديدة لاكتساب المعرفة، تر: منذر محمود محمد، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2016م، ص 234.

كما اعتبر بيكون أن هذا المنهج التجريبي الاستقرائي هو المنهج الصائب والوحيد الذي يمكن أن يؤدي إلى الحقيقة العلمية، بقوله: " ما تحتاجه العلوم هو شكل من الاستقراء يقوم على تفكيك التجربة وتحليلها، ومن ثم القيام بصياغة الاستنتاجات الضرورية المبنية على أساس سلسلة من العزل والرفض".[1] حيث يعتمد على الحقائق الصلبة المشتقة من التجربة والملاحظة المنهجية، وقد أسهم بيكون بشكل كبير في تطور المنهج العلمي ووضع الأسس للمنهج الاستقرائي الذي أصبح جزءاً أساسيًا من المنهج العلمي الحديث.

وفي الفلسفة المعاصرة يؤكد الكثير من فلاسفة العلم على أهمية المنهج بالنسبة للعلم رغم اختلافهم حول طبيعة المنهج الملائم بالنسبة للعلم، فقد ظهر في العصر المعاصر منهج آخر يُعرف بالمنهج الاستنباطي، وقد تم تناوله بشكل خاص من قبل الفلاسفة المعاصرون، وعلى رأسهم كارل بوبر.

ويعد المنهج الاستنباطي مناقضاً للمنهج الاستقرائي، حيث يعتمد على مبدأ التكذيب بدلاً من مبدأ التحقق. إنه نوع من البرهان والاستدلال الذي يستنتج نتائج من مقدمة أو مقدمتين في إطار البحث العلمي. يشترك المنهج الاستنباطي مع المنهج الاستقرائي في استنباط النتائج، ولكن بدلاً من الاعتماد على الأمثلة والتجارب الفردية، يستند إلى مقدمات البحث أو المعطيات الأولية للوصول إلى استنتاجات عامة، كما نجده في دليل أكسفورد يعني" نوع من البرهان أو الاستدلال تلزم فيه النتيجة ضرورة عن فئة معطاة من المقدمات مثال ذلك يمكن أن يستنبط من المقدمتين س، ص النتيجة س و ص الفئة المكونة وسلب فئة غير متسقة البرهان الذي يطرح بوصفه استنباط برهان غير سليم إذا كانت تلك الفئة متسقة إذا قامت علاقة قابلية للاستنباط بين النتيجة والمقدمات فإن النتيجة توصف أيضا بأنها مترتبة منطقية عن المقدمات".[2] فالمنهج الاستنباطي الاستدلالي يستمد نتيجته من المقدمات المعطاة له بطريقة منطقية.

المنهج الاستنباطي هو منهج استدلال علمي يعتمد بشكل خاص على البحوث العلمية، حيث يتميز بعدم الاعتماد على التجارب كوسيلة للتحقق، بل يستند إلى معيار التكذيب أو قابلية التكذيب، وقد تم تطوير هذا المنهج بواسطة الفيلسوف العلمي كارل بوبر، الذي اعتبره النسق العلمي المناسب للدراسات العلمية، حيث يركز المنهج الاستنباطي على محاولة تكذيب المعطيات بدلاً من تصديقها، بهدف الوصول إلى استنتاجات صحيحة وموثوقة، إذ يعتبر التحقيق في النقاط الضعيفة والتحديات المحتملة في النظريات والفروض العلمية جزءاً أساسياً من هذا المنهج، ويهدف المنهج الاستنباطي إلى تعزيز الدقة والموثوقية

[1] فرنسيس بيكون، الأورغانون الجديد أو: الوسيلة الجديدة لاكتساب المعرفة، المرجع السابق، ص 74.

[2] تدهوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، المرجع السابق، ص ص 463 – 464.

في المعرفة العلمية عن طريق تحديد النقاط التي يمكن تكذيبها واختبار قابلية النظريات والفروض للتحقق كما نجد مراد وهبة يقول بهذا الشأن أنه نسق علمي يقوم على تكذيب التجارب بدلا من التحقق منها وبهذه الطريقة نصل إلى نتيجة يقينية، فيقول " يعني النسق العلمي هو كذلك إذا كان من الممكن تكذيبه بالتجربة وليس إذا كان من الممكن التحقق منه إيجابيا بالتجربة ".[1] فهو يرى أن من الواجب أخذ مبدأ التكذيب كمبدأ أساسي من خلال تكذيب تجربة بتجربة أخرى، بدلا من تصديقها ثم إهدار الوقت في التحقق منها، فعندما تكذب تستنبط نتيجة يقينية.

[1] تدهوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، المرجع السابق، ص ص 209 – 210.

الفصل الثاني

الفوضوية المنهجية وعلاقتها بتطور العلم عند فيرابند

مدخل:

بعد استقراء المفاهيم المتعلقة بفكرة المنهج، والتي تعتبر حجر الزاوية الأساسي الذي كان محط اهتمام العقل البشري منذ الفلسفات القديمة وحتى الفلسفة المعاصرة في مجال فلسفة العلوم، نجد أن تتبع تطور هذا المفهوم عبر التاريخ والعصور الفلسفية المختلفة يظهر مدى أهمية التحديات الفلسفية التي واجهته في القرن العشرين.

ففهم المنهج يعكس جوهر البحث الفلسفي في طبيعة المعرفة وكيفية اكتسابها وتنظيمها، فالمنهج هو الطريقة الفكرية والمنهجية التي يستخدمها العقل البشري لاستكشاف الحقائق وفهم الظواهر المحيطة به كونه الخريطة التوجيهية التي توجه رحلة البحث الفلسفي نحو الحقيقة والمعرفة.

ومن خلال التاريخ الفلسفي، نجد توجهات ومدارس فلسفية متعددة تناولت المنهج بأشكال ومفاهيم مختلفة، ففلاسفة العصور القديمة اهتمو بدراسة المنهج الذي يؤدي إلى الحقيقة المطلقة، بينما ركز الفلاسفة المعاصرون على تحليل المنهج والتأكيد على العوامل المؤثرة في تشكيله.

حيث شهدت الفلسفة في القرن العشرين تحديات هامة في فهم المنهج وتطبيقاته، فالتقدم العلمي والتكنولوجي والتغيرات الاجتماعية والثقافية أدت إلى ظهور تحديات جديدة في مجال فلسفة العلوم وطرق البحث، ما دفع الفلاسفة للتساؤل عن صلاحية المنهج التقليدي في مواجهة التحديات الحديثة، وعن ضرورة تطوير المنهج ليتناسب مع التطورات السريعة في المجتمع والعلوم.

بالتالي، يمكن اعتبار المنهج واحدة من أبرز التحديات الفلسفية في القرن العشرين، حيث يتطلب فهم عميق ونقاش مستمر للتصدي للمشكلات المعاصرة وتطبيق المنهج بطرق مبدعة وملائمة للعصر، إنه تحدي يتطلب تفكيك التصورات التقليدية والتفكير النقدي لتطوير مناهج جديدة قادرة على التعامل مع التحولات السريعة في المعرفة والواقع، وهو ما دفع فيرابند إلى طرح مشروعه القوضوي.

هذا ما يدفعنا في الفصل الثاني إلى محاولة الإجابة عن السؤال التالي: **ما المقصود بمصطلح الفوضوية عنده وما مبرراتها؟ وما مفهومه للعلم وموضوعيته؟.**

المبحث الأول: في مفهوم الفوضوية المنهجية

1-1 مفهوم الفوضوية:

جاء في لسان العرب لابن منظور "فَوَّضَ" إِليه الأَمرَ: صَيَّرَه إِليه وجعَلَه الحاكم فيه. وفي حديث الدعاء: فَوَّضْتُ أَمْري إِليك أَي رَدَدْتُه إِليك. يقال: فَوَّضَ أَمرَه إِليه إِذا ردّه إِليه وجعله الحاكم فيه؛ ومنه حديث الفاتحة: فَوَّضَ إِليَّ عَبْدي. والتَّفْوِيضُ في النكاح التزويجُ بلا مَهْر.

وقَوْمٌ فَوْضَى: مُخْتَلِطُون، وقيل: هم الذين لا أَمير لهم ولا من يجمعهم؛ قال الأَفْوَهُ الأَوْدِي: لا يَصْلُحُ القَوْمُ فَوْضَى لا سَرَاةَ لَهم، ولا سَرَاةَ إِذا جُهّالُهُم سادُوا، وصار الناسُ فَوْضَى أَي متفرِّقين، وهو جماعةُ الفائضِ، وكذلك جاء القوم فوضى وأمرهم فيض وفوضى: مختلط.[1]

ونجد أيضا تعريف المصطلح في المعجم الفلسفي لمراد وهبة كالتالي:

(Anarchism or anarchie) هو لفظ إفرنجي مشتق من مقطعين "An" بمعنى النفي و " Archos" بمعنى السلطة، أي لا للسلطة، وأول من سكه هو " برودون"، ويعني عنده تدمير الملكية الخاصة وتابعه في ذلك "باكونين".[2]

وقد أطلق هذا اللفظ باحتقار على كل من ينكر القوانين ويروج للفوضى، ثم أطلق على اليساريون أثناء الثورة الفرنسية. الفوضوية تستند إلى القانون الطبيعي والعدالة، وبهذا المعنى تقال في مقابل العدمية إجمالا تعني تدمير السلطة ومؤسسات الدولة بدعوى أنها ضد الإنسان فهي إذا مذهب ينادي بإلغاء الرقابة السياسية داخل المجتمع.[3]

أي أن الدولة ومؤسساتها تعتبر أكبر أعداء الفرد وأن إلغاءها وإلغاء أنظمتها من شأنه القضاء على جميع الآفات والشرور الإنسانية.

وهناك معنى آخر للفوضوية بالمعنى الضيق هي نظرية في المجتمع الذي لا تحكمه دولة. بمعناها الأوسع، الفوضوية نظرية في مجتمع لا يخضع إلى إكراه من أية سلطة في أي مجال _ الحكومة، العمل الصناعة، التجارة، الدين، التربية، الأسرة.[4]

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.س، ص 3485.

[2] مراد وهبة، المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص 480.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] تدهوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، المرجع السابق، ص692.

ويذهب بعض أنصارها إلى القول بأن جذورها في الأصل تعود إلى المفكرين اليونان أمثال الرواقيين وبالأخص " زينون الإيلي" (336-264 ق.م)، كما يعتبر بوجه عام العمل الحديث الذي قام به " وليام جودوين" أول تفصيل و دفاع عن الفوضوية.[1]

وكما نجد للفوضوية تعريفا آخر في موسوعة لالاند الفلسفية (Anarchie et Anarchisme) هي مذهب سياسي يتضمن تلوينات مرموقة وتكمن سمته المشتركة في رفض كل نظام دولة، بفرض نفسه على الفرد من فوق، وبهذا المعنى تكتب An-archie أحيانا، وكذلك جرى استعمال كلمة Anarchisme وربما كان هذا الشكل أفضل، لأن من شأنه الحؤول دون التباس المعنيين وهذا غير نادر فالفوضوية مرادفة لكلمة فوضى.[2]

كما ورد في المعجم الفلسفي لجميل صليبا تفصيلا عن مصطلح الفوضى، في الفرنسية (Anarchie) وفي الإنجليزية (Anarchy) : الفوضى هي الخلل الذي ينشأ عن فقدان السلطة الموجهة أو عن تقصيرها في القيام بوظائفها أو نقص التنظيم وهي ضد النظام والترتيب يقال: قوم فوضى، أي ليس لهم رئيس يسوسهم، ويقال أيضا مالهم ومتاعهم فوضى بينهم.[3] أي بمعنى إذا كانو شركاء متساويين فيمكن لكل منهم التصرف في مال الآخر دون نكير.

وللفوضوية صور عديدة ومختلفة: حيث أن "غودوين" (Godwin) و"برودون" (Proudhon) و"توكر" (Tucker) ينكرون ضرورة الدولة إنكارا مطلقا، و" تولستوي" ينكر حاجة الشعوب المتحضرة إليها و"باكونين" (Bakounine) و" كروبتكين" (Kropotkine) يقولان أن التطور الإنساني سيؤدي إلى زوالها.[4] ومن بين هؤلاء الفلاسفة من يقول بأن وصول الفوضوية إلى غايتها لا يتم إلا من خلال الإصلاح (غودوين و برودون) ومنهم من يقول عكس ذلك و أنها لن تصل إلى غايتها إلا من خلال الثورة.

وكما ورد أيضا في معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية أن الفوضوية (L' Anarchisme) تعني مذهب معادي لسلطة الدولة ورافض لوجودها، حيث يرى أصحاب هذا المذهب وأشهرهم الروسيان

---

[1] تدهوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، المرجع السابق، ص692.

[2] أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المرجع السابق، ص 68.

[3] جميل صليبا المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، د.ط، 1982م، ص 167.

[4] المرجع نفسه، ص 173.

"باكونين وكروبتكين" وكذلك الفرنسيان "جان غراف" و "اليزي ركلوس" أن الدولة هي الشر الأعظم وأن الفرد هو القيمة المثلى والعليا التي ينبغي الاهتمام بها.[1]

ففي نظرهم كل طاعة هي خذلان و تحطيم للشخصية، كما أن الثورة ضد كل سلطة واثبات لشخصية الفرد ورفع من شأنها وقيمتها، فالفوضوية تقوم إذا على رفض الدولة وعلى مشروع تأسيس مجتمع من الأفراد الأحرار، دون حاجة إلى جهاز دولة متعال ليردع بعضهم عن بعض، نظرا لبشاعة الأملاك ونظرا لطيب الإنسان الأصلي ونزوعه الطبيعي إلى الخير.[2]

ويتضمن هذا المصطلح بالمعنى تفرقة الأمر واضطرابه، وقوم فوضى ليس لهم رئيس، ويقال مالهم فوضى بينهم بمعنى مختلط، من أراد منهم شيء أخذه، والفوضوية نظرية سياسية تقول بأن المجتمع يرتكز على التعاون الطوعي.[3]

ويفهم من هذا القول بأن الفوضوية ترمز إلى كل تعامل و تصرف يتسم بالحرية والمطلقية ولا يخضع لقاعدة أو قانون أو نظام يقيدها أو يسلب حريتها.

ويعتبر "برودون" (1809-1865م) أول من نادى بالفوضوية، وطالب بتفويض السلطة السياسية وإحلال تنظيمات اجتماعية تتبادل المنافع وتقوم على الاتفاقات الاجتماعية ولذلك تسمى فوضويته فوضوية نفعية.[4]

فالمرة الأولى استعمل برودون كلمة anarchie ثم استرجعها باكونين الذي يشير إلى هذا التوالد[5] فلا وجود لموقف محدد يتخذه كل الفوضويين، ولكن لا ننفي أيضا وجود تشابه بينهم و بين من يعتبرون أنفسهم فوضويين.

قد تكون آراء الفوضويين كلية بحيث يتعامل مع المجتمع كوحدة وتدعو إلى الثورة العنيفة، وقد تكون وفق رؤيتهم أكثر تحديدا، يتعامل مع وحدات صغيرة أو تناصر تغيرا تدريجيا، أيضا فإن لها صيغ متنوعة بدءا من الفردانية والراديكالية، والتي تبناها "ماركس سترنر" (1806-1856م)، وانتهاء بالشيوعية الفوضوية التي يقرها " كروبتكين" رغم الاختلافات القائمة بين أشياع الفوضوية.[6]

---

[1] جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، د.ط ، 2004م، ص 173.

[2] جلال الدين سعيد، المرجع السابق، ص 173.

[3] موسى خليل توفيق، معجم المعاصر، دار الإرشاد للنشر، ط1، 2001م، ص 355.

[4] الحنفي عبد المنعم، المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية، دار النشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2000م، ص 624.

[5] أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المرجع السابق، ص 67.

[6] تدهوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، ج2، المرجع السابق، ص 693.

وأما ماركس سترنر والذي أعتبر بأن الفوضوية ما هي إلا تفويض للسلطة السياسية، هو في الأصل أكثر المفكرين الفوضويين الفردانيين، حيث يتمتع الفرد عنده بحرية مطلقة، ولا يمكن أن تنتهك هذه الحرية بأي مبرر، فهو يعتبر بأن الفرد خلق ليكون حرا لا مقيدا.

أما فوضوية "ليو تولستوي" (1828– 1910م) فأساسها ديني، ولذلك تسمى بالفوضوية المسالمة وتقوم على احتساب الحاجة لمعيار التوزيع والإنتاج، وترفض الطاعة للسلطة والتعامل بالقانون مع الناس أو الدولة، والأخذ بنظام الملكية، ولكنها لا تحقق ذلك بالعنف وهي ذات خلفية فلسفية أكثر منها سياسية.[1]

وعلى الرغم من اختلافاتهم، يتفق أتباع الفوضوية على أهمية الحرية كقيمة أساسية، وينتقدون الدولة بشدة لأنهم يعتبرونها تعارض الحرية، إذ تعتبر معظم أدبيات الفوضوية أن الدولة هي وسيلة للقمع، وبناءً على ذلك، يرون أن جميع أشكال الاستبداد القائمة على السلطوية وتحقيق المصالح الخاصة غير مبررة وبالتالي يجب رفضها.

وبعد توضيح مفهوم الفوضوية في مجال الفكر السياسي وتبيان مختلف وجهات النظر لأتباعها يجدر بنا طرح السؤال التالي: هل تحمل الفوضوية المعنى نفسه في المجال العلمي الابستمولوجي؟

2-1 مفهوم الفوضوية المنهجية:

قام فيرابند بنقل مفهوم الفوضوية من المجال السياسي إلى المجال الفلسفي، وجعل منه مذهباً فلسفياً مختلفاً. ففي السياق السياسي، تعني الفوضوية رفض أي سلطة أو نظام، بينما في المجال العلمي الفلسفي تعني الفوضوية قبول كل شيء وعدم وجود قيود أو قواعد ثابتة.

حيث يوضح فيرابند الخلاف بين الفوضوية السياسية القائمة على أساس رفض كل أنماط السلطة وكل تنظيم مفروض، بينما الفوضوية في الابستيمولوجيا قائمة على تقبل كل شيء، ولا تعترف إلا بالمبدأ القائل " كل شيء جائز".[2]

إذ إن مصطلح الفوضوية لا يعني الفوضى والعشوائية، بل يشير إلى عدم الالتزام بقوانين العقل وعدم الخضوع لها، ففي سياق العلم، لا يوجد قواعد ثابتة محددة تنطبق عليه بشكل مطلق، بل يتميز بعدم وجود منهجية صارمة و يأسس بوجود الفوضى واللاعقلانية ، حيث يقول فيرابند: " إن العلم أساسا

[1] تدهوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، ج2، المرجع نفسه، ص 693.

[2] عبد السلام بن ميس، قضايا في الابستيمولوجيا والمنطق، شركة النشر والتوزيع للمدارس، الدار البيضاء، ط1، 2000م، ص 124.

عمل فوضوي، والفوضوية النظرية أكثر إنسانية من العلم، ومن المرجح أنها تشجع التقدم أكثر من البدائل المنهجية المتمثلة في القانون والنظام.[1]

حيث أن الفوضوية التي جاء بها فيرابند ترفض رفضا تاما فكرة المنهج الواحد، بل وتفتح المجال لجميع أنواع المشاريع في ميدان البحث العلمي، حيث رفض وحدة المنهج وفي المقابل دعا إلى تعدد المناهج في سبيل الحث على المنافسة بين نظريات العلم، وهو ما يجعل هذا الأخير يتطور، حيث يقول فيرابند: "إن الفوضوية ليست فقط ممكنة، لكنها ضرورية لتطور العلم ولتقدم الثقافة على حد سواء".[2]

إذ يؤكد فيرابند على عدم وجود منهج ضروري في العلم، وعلى عكس ما يظهر من فكرته فهو ليس ضد فكرة تقدم العلم، فبالنسبة له يتقدم العلم من خلال تعدد المناهج وتنوعها، حيث يرى أن الميثودولجيات القائمة لم تتوصل أي منها إلى الأنباء بما هو علم ورفض المنهج ليس معناه التأسيس للفوضى الشاملة بل الفوضى التنظيمية، فالفوضوية هي عملية تقوم على تفعيل حركة تقدم العلم، ذلك أن البحث الناجح والفعال لا يتبع منهج معين أو معيار أو مبدأ واحد، بل في اتجاه متعدد، وبهذا فهو يدعو للتعددية الميثودولجية وعليه يمكن القول أن الفوضوية في الابستيمولوجيا هي اتجاه فلسفي معاصر أسسه فيرابند متأثرا في ذلك بعلم اجتماع المعرفة لدي كون أو ما يسمى بسوسيولوجيا العلم فالبحث العلمي انتقل من الطابع الفردي ليتحول إلى مشروع كلي[3]

حيث يستهل فيرابند الفوضوية المنهجية بالهجوم على مناهج البحث التقليدية في كافة صورها التي ما فتئ فلاسفة العلم يروجون لها ويحاولون إقناعنا بأنها الفيصل بين العلم وغيره من ألوان الفكر الإنساني إذ يتقدم العلم في رأي هؤلاء الفلاسفة والعلماء من خلال جمع الوقائع ثم استدلال النظريات منها.[4]

ويعني ذلك أن فيرابند يريد أن يوضح فكرته وهي أن المعرفة لا يمكن أن تقتصر على منهج واحد محدد، بل إنها تأخذ أشكالًا وأنواعًا مختلفة وتكون نسبية وليست مطلقة. بالإضافة إلى ذلك، يشير فيرابند إلى أن المعرفة العلمية تتجاوز مجرد التخمينات والتفنيدات، وأن العلماء في التاريخ عادةً يتجاهلون الحالات الشاذة أو غير المتوقعة، والتحديات والتكذيبات. حتى إذا حدثت هذه الحالات الشاذة، فإنها لا تؤدي إلى رفض النظرية العلمية بشكل كلي، بل تُعتبر حالات استثنائية ونادرة بالنسبة للعلم.

---

[1] بول فيرابند، ضد المنهج، المصدر السابق، ص 21.

[2] المصدر نفسه، ص 39.

[3] عبد السلام بن ميس، قضايا في الابستيمولوجيا والمنطق، المرجع السابق، ص 124.

[4] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 10.

حيث يقول بأن العلم لم يكن أبدا أسير منهج واحد محدد، بل هو مشروع فوضوي، أي لا يعترف بأي سلطة، وكل المناهج يمكن أن تجدي فيه نفعا تبعا لشعار فيرابند، الأساسية في فحص تسلسل الأحداث الكبرى التي شكلت تاريخ العلم، ليوضح أنها لم تأتي عن طريق منهج واحد محدد، بل مناهج عدة.[1]

وبفهم من هذا، أنه يؤكد على أهمية التعددية المنهجية وأنه يمكن قبول أي منهج طالما يتناسب مع طبيعة المشكلة العلمية المطروحة، وكتابه ضد المنهج يعتبر دليلاً قوياً على ذلك، حيث يعترف فيرابند برغبته في وضع الأسس لنوع من الفوضوية المعرفية، ففي رأيه، يعتبر العلم نشاطًا فوضوياً في حد ذاته حيث يتطلب التقدم العلمي التحقق من فرضيات متعددة وتجارب واختبارات متعددة، وقد يكون هناك تناقضات وتباينات في النتائج والتفسيرات، هذا النهج الفوضوي يسمح بتطور العلم وتوسيع مداركنا وفهمنا للعالم من حولنا.

العلم أساسا عمل فوضوي، والفوضوية النظرية أكثر إنسانية من العلم، ومن المرجح أنها تشجع التقدم أكثر من البدائل المنهجية المتمثلة في القانون والنظام، وإذا كانت الفوضوية غير مرغوبة في مجال الفلسفة السياسية، فإنها في رأي فيرابند أفضل علاج لنظريات المعرفة.[2]

وقد شن فيرابند حربا ضد الميثودولجيا، بحيث يهاجم فيرابند الصور العامة التقليدية للمنهج العلمي التي تدور في فلك تصنيف الوقائع ولقد ذهب فيرابند إلى أنه ليس هناك منهج محدد الخطوات ينبغي إتباعه.[3]

فهو بذلك ينتقد المنهجية التقليدية في العلوم ويشن حرباً عليها، حيث ينتقد بشدة الصورة العامة للمنهج العلمي التي تعتمد على تصنيف الوقائع. يعتبر فيرابند أنه لا يوجد منهج محدد يجب اتباعه بخطوات محددة.

المبحث الثاني: مبررات فيرابند في دفاعه عن الفوضوية (التعددية)

إن فيرابند يعارض فكرة تأسيس المعرفة العلمية على أساس منهج واحد، ويؤمن بأن التقدم العلمي يحدث من خلال التعددية المنهجية، يعني ذلك أنه يروج لضرورة وجود مجموعة واسعة ومتنوعة من الأنماط والأساليب للتفكير، كما يعتقد فيرابند أن هذه التعددية تسمح للأفراد بإظهار قدراتهم وإمكاناتهم

[1] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، المرجع السابق، ص 422.

[2] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 10.

[3] جلال شمس الدين، البنية التكوينية لفلسفة العلوم، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 2009، ص ص 157-158.

وتفتح لهم مجال البحث، ويعتبر أن العائق الرئيسي في هذا الصدد هو الالتزام بالمنهج الواحد الصارم الذي يدعي اليقين، والذي يعيق التقدم العلمي، إذ يقول : " إن معظم القواعد التي يدافع عنها العلماء وفلاسفة العلم باعتبارها شكلا تنظيميا للمنهج التعليمي إما عديمة النفع أو ضعيفة ".[1]

حيث تعكس هذه التصورات ضعفاً ينبع من الاعتماد الكامل على الصيغة الإقصائية في العلوم. فهي تدعي وجود منهج وحيد يجب الالتزام به في الممارسة العلمية، وتصر على أن هذا المنهج هو السبيل الوحيد للوصول إلى الحقيقة.

إن نظرية فيرابند الميثودولوجية هي التعددية المنهجية التي هي ذاتها الفوضوية أو اللاسلطوية المعرفية، فإن شئنا عنوانا لفلسفة العلم فهي (العقلانية الفوضوية) التي ترفض أيضا تنصيب السلطة المعرفية للعلم بالذات على أساس أن التقدم المعرفي يأتي عن طريق إطلاق طاقات الإبداع والخلق والابتكار.[2]

فلا يجب التشديد بأي حال من الأحوال على اتباع منهج معين أو الالتزام بنظام معرفي محدد دون غيره. فالعلم لم يكن أبداً مقيداً بمنهج واحد محدد، بل هو مشروع فوضوي. فهو لا يعترف بأي سلطة قائمة ولا يمكن أن تكون المعرفة العلمية مقتصرة على منهج واحد معين. بل على الباحث أن يتبع عدة مناهج وهذا هو ما يحفز الإبداع والابتكار ويدفع عجلة تكسير القيود.

إن فيرابند يؤكد أن ميثودولوجيات العلم تفشل في تزويدنا بالخطوط الموجهة التي يمكن لها أن تفيد المشتغلين في قيادة وإرشاد نشاطاتهم أو فعالياتهم، ويؤكد زيادة على ذلك أن من العبث أن نتأمل اختزال العلم إلى بعض القواعد الميثودولجية البسيطة.[3]

حيث يؤكد فيرابند أن المنهجيات العلمية تفشل في توفير الإرشاد والتوجيه العملي الذي يمكن أن يساعد الباحثين في قيادة وتوجيه أنشطتهم أو فعالياتهم. وبالإضافة إلى ذلك، يشدد على أنه من غير المناسب أن نحاول اختزال وتقليص العلم إلى مجرد مجموعة بسيطة من القواعد المنهجية.

وذلك نظرا لتعقد العلم إلى بعض القواعد الميثودولجية البسيطة وكذلك نظرا لتعقد تاريخه يهاجم فيرابند الصورة العامة التقليدية للمنهج العلمي التي تدور في فلك تصنيف الوقائع، ثم وضع الفروض للتحقق منها لتنشئ نظريات توفر لنا تنبؤات صادقة بما يقع في المستقبل.[4]

---

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 113.

[2] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، المرجع السابق، ص 122.

[3] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 113.

[4] جلال شمس الدين البنية التكوينية لفلسفة العلوم، المرجع السابق، ص 157.

ينتقد فيرابند الصورة العامة التقليدية للمنهج العلمي التي تركز على تصنيف الوقائع ووضع الفروض للتحقق منها لبناء نظريات توفر لنا تنبؤات صادقة بما سيحدث في المستقبل، حيث يرى فيرابند أن تاريخ العلم معقد ومتشعب، وبالتالي يعتبر أن الاعتماد فقط على بعض القواعد الميثودولوجية البسيطة ليس كافيًا لتوفير الإرشاد العملي والتوجيه الذي يحتاجه الباحثون.

ويسوغ فيرابند حججا عديدة للدفاع عن التعددية ورفض الأحادية المنهجية نذكر منها مايلي:
من الناحية المنطقية، لا يمكننا أن نقبل بأن كل نظرية علمية جديدة هي نتيجة استنباطية مباشرة من النظريات السابقة المؤكدة. بالإضافة إلى ذلك، فإنه ليس من حقنا أن نعتبر تلك النظريات مجرد تقريبات أو تعليمات تناسب النظريات السابقة المعروفة. يرى فيرباند أن التقدم العلمي يستدعي تطوير تصورات جديدة تمامًا، ولا يمكن تحقيق ذلك من خلال الاعتماد فقط على تصنيف العلوم ووضع الفروض للتحقق منها.

لطالما أن فيرابند ينادي بالعلم الفوضوي فإننا لا نوافقه على فكرته الفوضوية في المعرفة، فحقيقة أن تعدد المناهج قد ساعد مختلف العلوم على إيجاد أجوبة على أسئلة للإنسان على الأقل، أما أن التقييد الصارم لفكرة المنهج لا تجدي نفعا في تطور المعرفة العلمية.[1]

نحن لا نقبل هذه فكرة لأن العلوم لم تتمكن من التقدم إلا بعد تبني منهجٍ يسير على خطى محددة حتى ولو كان هذا المنهج بسيطًا جدًا، إذ يوافق العلماء فيروباند في وجهة نظره بشأن تعدد المناهج، لأن ذلك يساعد في العثور على إجابات لأسئلة الإنسان، ومع ذلك، فإنهم لا يوافقونه فيما يتعلق بفكرة وجود منهج واحد لا يفيد في تطور المعرفة العلمية، لأن العالم يستطيع من خلال منهج محدد أن يبني نظرياته وصياغتها بطريقة علمية صحيحة.

فيرابند يرى أن عدم الالتزام بقواعد المنهج العلمي أو تجاوزها ليس أمرًا مرفوضًا في العلم. يعتبر التعدد والتنوع جزءًا أساسيًا من العلم، وأن اقتصار الممارسة العلمية على منهج واحد يؤدي إلى إلغاء جانب كبير من البحث العلمي. فعلى سبيل المثال، هناك العديد من الأفكار الهامة في المعرفة التي تم رفضها لعدم توافقها مع المنهج القائم، ولذلك يجب أن نفهم أن التنوع والتعددية في المناهج يساهمان في تطور العلم.

[1] إبراهيم علي جمول، نظريات المعرفة العلمية بين المنهج والتطبيق (كارل بوبر، توماس كون، فيرابند)، دراسة تحليلية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، 2011م، ص 142.

إن التعددية لا تعطي فعالية على مستوى الميثودولوجيا فقط بل يمكنها أن تتخذ كأسلوب حياة في تطور الإنسانية، وبهذا ترتكز فلسفة فيرابند على قضية المنهج بالدرجة الأولى فهو يرفض كما سبق الإشارة إليه وكافة الميثودولجيات لا سيما الوضعية المنطقية والمنهج البوبري، كما يرفض أطروحات توماس كون وإمري لاكاتوش.[1]

يرى فيرابند أن التعددية المنهجية هي الأسلوب الأمثل لتقدم العلم، وأنه لا يجب إهمال أي قاعدة تساعد في التطور العلمي، قد تكون هناك ظروف تتطلب كسر القواعد المتعارف عليها لتحقيق التقدم وتاريخ العلم يؤكد هذه التعددية والتنوع في المناهج، فيرابند يروج للمنهج الذي يشجع على التنوع والتعدد، ويعتبره المنهج الوحيد المناسب لتلبية احتياجات الأفكار البشرية والنظرة الإنسانية، إذ يعتقد فيرابند أن القواعد والمناهج العلمية لها حدود، وأن التقدم الحقيقي يأتي من خلال استكشاف وتجاوز تلك الحدود.

إن فيرابند يلح على أن تكون القواعد المنهجية مستمدة من الممارسة الواقعية، ولا وجود لقواعد جامدة وهو في ذلك ينطلق من موقف إنساني يتمثل في الحث على الإبداع مهما كانت الأفكار والتصورات.[2]

يؤكد فيرابند على أهمية أن تكون القواعد المنهجية مستمدة من الممارسة الواقعية والتجربة، حيث أنه يرفض وجود قواعد صارمة وثابتة، وبدلاً من ذلك يدعو إلى تأكيد الابتكار والإبداع بغض النظر عن الأفكار والتصورات المتبعة، إذ ينطلق فيرابند في موقفه من وجهة نظر إنسانية، حيث يعتبر الإبداع والتجديد مهمين بشكل كبير، كما يحث على تحرير العقل وتحطيم الحواجز التقليدية لتحقيق تقدم حقيقي في العلوم.

المبحث الثالث: الفوضوية وعلاقتها بالعلم

3-1 مفهوم العلم عند فيرابند:

في كتابه "العلم في مجتمع حر"، يثير فيرابند تساؤلات حول مفهوم العلم وكيف يتقدم، يناقش أيضاً تباين معاييره ويستكشف الأسباب التي تجعله المفضل على الأساليب الأخرى، بعد ذلك يجيب فيرابند على سؤاله بشأن مفهوم العلم، حيث يشير إلى وجود تعدد في الإجابات واختلافها بسبب التنوع

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 203.

[2] المصدر نفسه، ص 88.

في مدارس فلسفة العلم، فكل مدرسة تقدم تعريفاً خاصاً للعلم وتقدم مبررات لهذا التعريف، ويضيف أن تحديد مفهوم العلم وفهم طبيعته لا يزال موضوعاً قيد النقاش، وأنه قد يتم تحديد هذا المفهوم في يومٍ ما في المستقبل.

يجيب فيرابند عن سؤاله حول مفهوم العلم، مشيرا إلى تعدد الإجابات واختلافها بتعدد مدارس فلسفة العلم، حيث تقدم كل مدرسة تعريفا خاصا مع تقديم مبررات هذا التعريف ويضيف أن تحديد مفهوما للعلم وطبيعته لم تتضح بعد ولا زال محل نقاش، وقد تحصل فرصة ويتم تحديد هذا المفهوم ذات يوم.[1]

من الواضح أن الإجابة التي قدمها فيرابند لا تعبر عن عجزه في تعريف العلم، بل تشير إلى رؤيته بأن العلم له ارتباط بالجوانب الإيديولوجية والسياسية، حيث يعتبر فيرابند أن هذه الجوانب قد أدت في النهاية إلى تحويل العلم إلى مجرد إيديولوجيا.

3-2 العلم كإديولوجيا:

فيرابند اتخذ موقفاً نقدياً من تحول العلم الذي كان في الأصل يهدف إلى محاربة الأيديولوجيات الدينية والسياسية المختلفة، ولكنه في ظل الظروف الحالية أصبح بدوره أحد الأيديولوجيات، وهو ما عبر عنه بقوله: " العلم إنما هو أيديولوجيا ضمن أيديولوجيات متعددة".[2]

بالتالي، يمكن القول أن العلم، مثل الأيديولوجيات الأخرى، يسعى للتأثير على المجتمع ويدعي أنه يمتلك الحقيقة، حيث يتميز العلم بأنه يستخدم منهجاً علمياً لدراسة مختلف الظواهر، مما يجعله يتفوق على الأيديولوجيات الدينية والفلسفية في هذا الصدد.

تحول العلم إلى إيديولوجيا في نظر فيرابند يستند إلى ادعاء العلم بأنه مبني على العقلانية وقدرته على تحقيق اليقين والمنطقية وحل مشاكل الإنسان المختلفة. وبسبب هذه القدرات، يعتبر فيرابند أن العلم يستغل هذا الأمر ليصبح سلطة تستخدم لاستعباد الأفراد وجعلهم عبيداً للعلم وعقلانيته. يعتقد فيرابند أن العلم يسعى إلى التحكم في الناس وتوجيه أفكارهم وسلوكهم، وهو ما يعتبره استغلالاً للقوة وتحويل العلم إلى نظام إيديولوجي يسيطر على المجتمع.

---

[1] بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، المصدر السابق، ص 87.

[2] المصدر نفسه، ص 120.

إن ما يبرر تحول العلم إلى إديولوجيا في نظر فيرابند هو إدعاء العلم قيامه على العقلانية، وتميز نتائجه باليقين والمنطقية وقدرته على تفسير وحل مختلف مشاكل الإنسان، مما جعل هذا الأخير عبدا له ولعقلانيته التي كثيرا ما تستخدم لاستعباد الناس.[1]

إذ ترتب على تحول العلم إلى إيديولوجيا آثاراً كارثية وجسيمة على الإنسان، ويمكن استخدام تاريخ اختراع العديد من أسلحة الدمار الشامل وتزايد حالات الحروب كدليل على ذلك، فعندما يتحول العلم إلى أداة للسلطة والتحكم، فإن النتائج المترتبة على ذلك قد تكون كارثية وتؤثر بشكل جوهري على البشرية، ينبغي لنا أن نتأمل في هذه التحولات ونسعى لضمان أن يبقى العلم محايداً وموجهاً نحو رفاهية الإنسان وسلامة المجتمع وتطوره.

ومن هنا وجب علينا حسب فيرابند التخلي عن النظرة السابقة للعلم على أنه معرفة مقدسة ومنزهة ومميزة. بل ينبغي النظر إليه على أنه مجرد نسق كباقي الأنساق النعرفية، وأن تميزه وتفضيله عن هذه الأنساق مرتبط بجوانب سياسية، لذلك يتوجب فصل العلم عن السياسة وعن الدولة مثلما يعتبر الدين الآن منفصلا عن الدولة.[2]

وفقًا لفيرابند، يجب أن نتخلى عن النظرة التقليدية للعلم كمعرفة مقدسة ومنزهة ومميزة. بدلاً من ذلك، يجب أن ننظر إلى العلم كنسق معرفي عادي مثل باقي الأنساق المعرفية، فإنه يتم تمييزه وتفضيله عن هذه الأنساق بناءً على جوانب سياسية، لذلك، يجب أن نفصل العلم عن السياسة وعن الدولة بنفس الطريقة التي يُعتبر بها الدين الآن منفصلًا عن الدولة، هذا يعني أن العلم يجب أن يكون خالياً من التأثيرات السياسية وأن يكون مستقلاً في ممارسته واتخاذ قراراته، مما يضمن حياديته وتركيزه فقط على البحث عن الحقائق وتوسيع المعرفة دون توجيهه أو استغلاله لأغراض سياسية.

ان العلم ليس أرقى بالضرورة من أشكال المعرفة الأخرى، فالعلاقة بين العلم وأشكال المعرفة عنصر هام من عناصر تصور فيرابند للعلم، إنه يبرز نقطة يعدها العديد من الباحثين في مناهج العلم شيئا محصلا ومكتسبا، دون أن يقدمون على ذلك حججا أو أدلة، وهذه النقطة هي أن العلم أو الفيزياء شكل نموذج المعقولية.[3]

---

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 288

[2] بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، المصر السابق، ص 121.

[3] آلان شالمرز، نظريات العلم، تر: الحسين سحبان وفؤاد الصفا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991م، ص 139.

حيث يعتبر فيرابند أن العلم ليس بالضرورة أرقى من أشكال المعرفة الأخرى، وفي تصوره للعلم يعكس العلم وعلاقته بأشكال المعرفة الأخرى عنصراً هاماً. يؤكد أن هناك نقطة يعتبرها العديد من الباحثين في مناهج العلم، وهي أن العلم أو الفيزياء يمثل نموذجاً للمعقولية. ومع ذلك، يلاحظ أن هؤلاء الباحثين لا يقدمون حججاً أو أدلة قوية تثبت هذه النقطة. وبالتالي، فيرابند يشير إلى أن العلم ليس الشكل الوحيد للمعرفة الصالحة، وأنه يجب أن ننظر إلى أشكال المعرفة الأخرى بنفس الاحترام والتقدير.

ومن هنا، ينتقل فيرابند إلى الاعتقاد بأن العلم لا يتمتع بأي ميزة أو مكانة تجعله يتفوق على الأنشطة الأخرى والفعاليات الفكرية الإنسانية المتنوعة، يدافع فيرابند في هذا السياق عن المجتمع بشكل عام، ويقوم بذلك من خلال المقاومة والاعتراض على جميع الأيديولوجيات، بما في ذلك العلم نفسه.

في نظر فيرابند، يعتبر العلم جزءاً من الأيديولوجيات التي يسعى إلى تحقيق السيطرة والتأثير على المجتمع، ومن هذا المنطلق، يدافع فيرابند عن حقوق المجتمع ويعارض أي تحكم أو استغلال يتم من خلال العلم أو أي أيديولوجية أخرى تهدف إلى السيطرة على حياة الأفراد والمجتمع بشكل عام.

يرى فيرابند أنه يجب علينا أن لا نعامل هذه الأيديولوجيات بأهمية كبيرة أو نمنحها حجماً أو قدراً أكبر مما تستحق، فبالنسبة له، ينبغي علينا أن نتعامل معها كما نتعامل مع الحكايات الخيالية، أي بأننا نقرأها أو ندرسها لفهم الآراء والمفاهيم المطروحة، ولكن بدون إعطائها أهمية زائدة أو أن نأخذها على محمل الجد، إذ يعتبر فيرابند أن الأيديولوجيات تعكس وجهات نظر ومصالح معينة، وقد تكون مفيدة في تحليل وفهم العالم والمجتمع، ولكنها ليست حقائق مطلقة أو مرجعية مطلقة.

كما يجب تحرير الفرد من سلطته " علينا أن نحرر المجتمع، وذلك تماما كما حررنا أجدادنا من قوة الخنق التي تحملها الديانة الصحيحة الوحيدة ".[1]

في تصور فيرابند، يجب علينا تحرير المجتمع من سلطة العلم بنفس الطريقة التي حررنا فيها أجدادنا من سلطة الديانة الصحيحة الوحيدة، يرى فيرابند أن هذه الأيديولوجيات تمثل قوة قمعية تحملها وتفرضها على الأفراد والمجتمع، وتقيّد حرية التفكير والتصرف. وبالتالي، يروج فيرابند لفكرة تحرير المجتمع من أي سلطة تقيّده وتقمع حريته.

حيث يعني بتحرير المجتمع تعزيز حرية الفرد وتقدير التنوع والاختلاف في الآراء والمعتقدات. يعتقد فيرابند أنه يجب أن يكون للأفراد حق تحديد مسار حياتهم وتكوين آراءهم بناءً على رغباتهم الشخصية وتجاربهم الفردية، دون تدخل أو قيود من أي سلطة مطلقة.

[1] آلان شالمرز، نظريات العلم، المرجع السابق، ص 143.

من خلال هذا النهج، يسعى فيرابند إلى تحقيق مجتمع يكون فيه الفرد حراً للاختيار والتعبير عن ذاته من خلال الفوضوية والتعددية.

3-3 المعرفة العلمية من الموضوعية إلى النسبية:

يقصد بلفظ النسبية (Relativisme) ذلك المذهب أو وجهة نظر فلسفية تنظر إلى أن قيمة ومعنى المعتقدات الإنسانية والسلوك الإنساني ليست لها مرجعية مطلقة تقوم بتحديدها. كما يستخدم مصطلح النسبوية للدلالة على المنحى الفلسفي الذي يقول بعدم وجود حقيقة مطلقة.[1]

النسبية، كمصطلح فلسفي، يرمز إلى المذهب أو النظرية التي تعتبر أن قيم ومعاني المعتقدات البشرية والسلوك الإنساني لا تمتلك مرجعية مطلقة تحدد طبيعتها. يُستخدم مصطلح النسبية أيضًا للإشارة إلى الاتجاه الفلسفي الذي يُؤكِّد عدم وجود حقيقة مطلقة.

أما في فلسفة العلم فيطلق مصطلح النسبية على أحد الاتجاهات المعاصرة في فلسفة العلم المعارضة لموضوعية العلم ومطلقيته. وابرز من مثلها الفيلسوف فيرابند، الذي اكتسب شهرته من نزعته النسبية أو الشكية في قواعد المنهج العلمي المتعارف عليها. وإذا كان الفلاسفة يتسامحون أحيانا مع النزاعات النسبية في مجال الميتافيزيقا، بل وحتى الأخلاق والدين، فقد كان من الصعب عليهم أن يقبلوا ذلك في مجال العلم.[2]

ففي فلسفة العلم، يستخدم مصطلح النسبية لوصف اتجاه معاصر يعارض مفهوم موضوعية العلم وطابعه المطلق، حيث يعتبر الفيلسوف فيرابند من أبرز الممثلين لهذا الاتجاه، حيث اشتهر بنزعته النسبية والشكوك التي يثيرها في قواعد المنهج العلمي التقليدي، وعلى الرغم من أن الفلاسفة يتسامحون أحياناً مع التنازعات النسبية في الميتافيزيقا، وحتى في المجالات الأخلاقية والدينية، فإنه كان من الصعب عليهم قبول هذا النهج في مجال العلم.

حيث اعترف فيرابند بطبيعة النسبية في المعرفة العلمية واختلافها وربطها بالإنسان، وقد نفى وجود أي معرفة موضوعية، كما يرى فيرابند أن المعرفة العلمية تعتمد على التأثيرات الشخصية والاجتماعية والثقافية للباحث، وبالتالي، لا يمكن أن تكون مطلقة أو موضوعية في المعنى التقليدي، وهذا ما عبر عنه من خلال قوله: " لقد كنت نسبيا على الأقل بأخذ المعاني العديدة لهذه الكلمة، ولكنني الآن

[1] مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر، الأردن، ط1، 2009م، ص 623.

[2] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، 1997، ص 26.

اعتبر المذهب النسبي اقترابا إنسانيا من وجهة نظر أفضل".[1] إذ يُعتبر وجود المعرفة الكلية غير ضروري وغير متاح حيث يعتبر أن كل ما هو متاح هو وجهات نظر متنوعة، ومن الممكن أن تكون بعض وجهات النظر صادقة بينما لا يوجد هناك أي آراء غير مرتبطة بتقاليد معينة.

إن الموضوعية يتعذر تحقيقها في العديد من التجارب العلمية، بحيث كلما حاول المجرب الوصول إليها اصطدم بالذاتية، فعندما تجري التجارب على المستوى الأدنى، فإن العلاقة الشخصية بين المجرب وأدواته تلعب دورا حيويا، فالمجرب يعرف أدواته، ويمكنه كتابة جزء من المعرفة الكامنة وراء التجريب غير أن جزء كبير منها يظل حدسيا.[2]

إذ تظهر صعوبة تحقيق الموضوعية في العديد من التجارب العلمية، حيث يواجه المجرب تحديات متعلقة بالعوامل الشخصية، لأنه عندما يتم إجراء التجارب على نطاق صغير، تلعب العلاقة الشخصية بين المجرب وأدواته دوراً حاسماً، إذ يتعرف المجرب على أدواته وقد يتمكن من تسجيل جزء من المعرفة المكنونة وراء التجربة، ولكن هناك جزء كبير من المعرفة يبقى ضمن نطاق الحدس والتخمين.

إذ يُعتبر فيرابند ظاهرة مثيرة للاهتمام في مجال فلسفة العلم بسبب مواقفه الفريدة والمثيرة للدهشة هذه المواقف تستحق الدراسة نظراً لأهميتها في إثراء الفهم حول قضايا مركزية في الفكر الغربي، خاصة فيما يتعلق بالجانب الإبستيمولوجي، كما يلاحظ أن فيرابند يتعامل مع نظريته حول العلم بطريقة فوضوية في الإبستيمولوجيا، ومع ذلك، فإنه لا يمانع في قبول بعض المبادئ، وهو ما يتناقض مع روح الفوضوية التي تناهض المبادئ بشكل عام. بالإضافة إلى ذلك، يعلن انتماؤه للنسبانية البروتاغورية، مشيراً إلى "بروتاغوراس".

يعتبر فيرابند ظاهرة مستفزة داخل مجال فلسفة العلم بمواقفه الغريبة والطريفة، التي تستحق الدراسة لأهميتها في إغناء التصورات حول قضايا مركزية في الفكر الغربي، ولا سيما الشق الابستيمولوجي منه، ومما لا شك فيه أن فيرابند يتعب قارئه الشغوف بحديث المذاهب والفرق، فهو يدرج نظريته حول العلم في خانة الابستيمولوجيا الفوضوية لكنه لا يخفي استعداده للأخذ ببعض المبادئ، مما ينافي روح الفوضوية المناهضة لكل مبدأ ويعلن انتمائه إلى النسبانية البروتاغورية نسبة إلى "بروتاغوراس".[3]

---

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 232.

[2] المصدر نفسه، ص 212.

[3] حسن الحريري، فيرابند بين الفوضوية النسباوية، الشرق الأوسط، العدد 13337، الخميس 04 يونيو 2015م، ص 20.

تعتبر النزعة النسبية من أبرز تجليات فيرابند، حيث يستخدم مفهوم النسبانية بمعانٍ متنوعة ومتباينة وأحيانًا بشكل عبثي، ومع ذلك، يتضح من خلال دراسة تطور العلوم والفنون والفلسفة أن التنوع الفكري يرتبط بشكل وثيق بالثقافة المتعددة للمذاهب، حيث أن التعايش والتفاعل بين هذه المذاهب يشجع على الإبداع والابتكار، وهذه هي الخاصية الأساسية للمعرفة العلمية، إذ يعتقد فيرابند أن الثراء الفكري يتلازم مع وجود التعدد المذهبي، حيث يتعاون الأفراد ويتبادلون الأفكار والمناهج لتحقيق التقدم والتطور في المجالات المختلفة، وهو ما يتجلى في قوله: " أن تنوع الآراء سمة ضرورية للمعرفة الموضوعية والمنهج الذي يشجع التنوع هو كذلك المنهج الوحيد الذي يساير النظرية الإنسانية".[1]

وقد أشار فيرابند إلى أن مفهوم النسبانية ليس محدداً بشكل دقيق، بل يتم تفسيره بطرق مختلفة ومتنوعة حسب السياقات والاستخدامات، فهناك العديد من التقاربات والمفاهيم المختلفة التي يمكن أن تُرتبط بمفهوم النسبانية، وتختلف هذه المفاهيم باختلاف طرق استخدامها وتطبيقاتها، حيث يعكس هذا التنوع في التفسيرات والمقاربات الفردية لفيرابند وجهة نظره الفلسفية المعقدة والمتعددة الأبعاد.

تتمحور فلسفة فيرابند حول فكرة التقدير لجميع الثقافات والتقاليد، وهذا التقدير هو الدعامة الأساسية للنسبانية، حيث يقول: "يجب على المجتمعات الديمقراطية أن تعطي لكل التقاليد حقوقا متساوية وليس فقط حظوظا متساوية" فقد حاول من خلال كتاباته وضع تأصيل لمفهوم النسبانية، ففي كتابه "وداعاً أيها العقل" يقدم فيرابند العديد من الملاحظات التي تسلط الضوء على غموض النسبانية وتعقيدها ما جهله يثيره في الكثير من أعماله ومؤلفاته التي جاءت فيما بعد.

ويميز فيرابند بين النسبية الفلسفية ومذهب الشك والفوضوية الساذجة والفوضوية الابستيمولوجية والنسبية البروتاغورية، فهو يذهب إلى أن الفوضوية المعرفية ليست سوى علاجا ممتازا لنظرية المعرفة.[2]

فهو يميز بين عدة توجهات فلسفية، بما في ذلك النسبية الفلسفية ومذهب الشك والفوضوية الساذجة والفوضوية الابستيمولوجية والنسبية البروتاغورية، وفي طرحه، يؤكد فيرابند أن الفوضوية المعرفية تعد علاجًا فعّالًا لنظرية المعرفة.

[1] حسن الحريري، فيرابند بين الفوضوية النسباوية المرجع السابق، ص 21.

[2] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 22.

وفقًا لفيرابند، يرى أن نظرية المعرفة تعاني من مرض وتحتاج إلى علاج، إذ يعتبر العلاج في هذه الحالة هو الفوضوية المعرفية، وبالتالي عندما يتجاوب المرض مع العلاج ويتعافى، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أن فلسفة العلم يجب أن تكون بدون قيود أو شروط.

ومن خلال هذا ذهب فيرابند إلى أن العلم لا يتمتع بأية ميزة أو مكانة تجعله يتفوق على الأنشطة الأخرى والفعاليات الفكرية الإنسانية المختلفة[1].

و يقودنا هذا الى الاستنتاج بوجود تأويلين أساسيين لنسبانية فيرابند يمكن استخراجها من خلال نصوصه وهما : لاشيء مطلق وكل شيء صادق وحقيقي، وأن كل حكم أخلاقي أو سياسي أو اجتماعي أو معرفي، يتوقف على الثقافة التي يوجد فيها ويتحدد بها، وهكذا تكون كل الثقافات مطلقة، وهذا النوع من النسبانية يرفضه فيرابند، ليس بسبب عدم انسجامه، لكن من الخطر الذي يمثله وينتج عنه يلقنه النوع الإنساني، وقبول كل شيء وأي شيء باسم احترام الثقافات.[2]

النسبانية المطلقة تتعارض مع الموضوعية المطلقة، حيث تعتقد النسبانية المطلقة أن هناك وجهة نظر واحدة فقط للأشياء والموضوعات. في ضوء ذلك، يشير فيرابند إلى أنه يمكن حل كل مشكلة بشكل بسيط من خلال معادلات رياضية محددة بدقة. إذاً، فإن منظور فيرابند الذي لا يستخدم هذه الرؤية هو خاطئ ويجب عليه اعتمادها لكي يصل إلى الحقيقة، ومع ذلك، يجب أن نأخذ في الاعتبار تعقيد وتنوع العلم، وعدم اختزاله إلى النسبانية المطلقة أو الموضوعية المطلقة. بل يجب أن ندرك أن العلم يحتوي على تنوع وخصوصية تفتح لنا طرقًا وإمكانيات معرفية جديدة.

ففي فلسفته العلمية، يتناول فيرابند مشكلة الصدق والحقيقة الموضوعية من خلال المناقشة والنقد. يُقدم وجهة نظر تشير إلى عدم وجود صدق موضوعي أو حقيقة موضوعية في العلم، مما يشير إلى النسبية في المعرفة العلمية والإنسانية بشكل عام.

إن غموض مفهوم النسبانية عند فيرابند يجعله عرضة لتأويلات كثيرة متضاربة، تجمع بين مفهوم النسبانية كموقف للامبلاة وتعليق الحكم وتساوي الأفكار وغياب النقد، ويبين النسبية كخاصية مكونة للفكر العلمي المعاصر، تنتج من خلال دينامية النقد والمقارنة بين التقاليد والثقافة باعتبار أن النقد يعمل على غربلة الأفكار وإبراز مدى تأثيرها أو محدوديتها في تطور الأنساق الثقافية.[3]

---

[1] محمود محمد علي محمد، التفكير العلمي و مستجدات الواقع المعاصر، دار الوفاء الدنيا للطباعة والنشر، ط1، 2013م، ص 278.

[2] حسن الحريري، فيرابند بين الفوضوية والنسباوية، المرجع السابق، ص 22.

[3] محمود محمد علي محمد، التفكير العلمي ومستجدات الواقع المعاصر، المرجع السابق، ص 277.

ويفهم من هذا أن النسبانية عند فيرابند تعكس تنوعاً كبيراً من التأويلات والمنهجيات المتناقضة وهذا التنوع ينتج عن تباين الآراء والمفاهيم المختلفة التي تتبناها. فعلى الرغم من ذلك، حيث يمكن تحديد دلالتين رئيسيتين للنسبانية في هذا السياق. الأولى هي استخدام النسبانية كأداة لإبراز الأحكام والأفكار المختلفة بمعنى أنها تسمح بتقديم وجهات نظر متعددة. الثانية هي أن النسبانية تعتبر سمة مميزة للفكر العلمي المعاصر، حيث يتميز بقدرته على استيعاب وتفسير التناقضات والتباينات في المعرفة والمفاهيم.

فإن الصدق يعتبر ظاهرة نسبية، حيث يتفاوت تعريفها وتطبيقها من منطقة إلى أخرى ومن شخص لآخر، حيث يركز فيرابند على النسبية الابستيمولوجية التي تنفي وجود أفكار جديدة ومعارف مبتكرة تتجاوز التقاليد القائمة، وبناءً على ذلك، يعتبر بعض الناس أن هناك تقاليد صحيحة فقط لأنها تعتبر موضوعية وعلى الرغم من أن فكرة الصدق الموضوعي أو الحقيقة الموضوعية مستقلة عن رغبات البشر، إلا أنه يتم اكتشافها من خلال تأثير العنصر البشري.

ويحدد فيرابند بين النسبية الفلسفية والفوضوية المعرفية بالقول بأن الأولى هي بأن كل التراث التقليدي أو النظريات صادقة أو كاذبة بنسب متساوية، أما الفوضى من يؤكد أمورا سخيفة على أمل أن يقود ذلك إلى صور جديدة من صور الحياة.[1]

على الرغم من أننا قد نميل إلى القول بأن فيرابند ينتمي إلى تراث الشكاكين من الفلاسفة، إلا أنه لا يخفي إعجابه بمقولة بروتاغوراس التي تقول: "الإنسان مقياس كل الأشياء". بالإضافة إلى ذلك يلجأ فيرابند إلى مبدأ النسبية الذي اقترحه بروتاغوراس عندما يقرر ما إذا كان التراث التقليدي جيداً أو سيئًا في حد ذاته.

كما أن فيرابند يمتدح نسبية بروتاغوراس لأنها تهتم اهتماما كبيرا ومشكورا بفكرة تعدد القيم والتقاليد دون أن تفترض أن رؤية الفرد الذاتية أو عاداته وتقاليده.[2]

ويفهم من خلال هذا أن فيرابند يعتبر نسبية بروتاغوراس هي المفهوم الوحيد الحقيقي، ويعتبرها أحد الأفكار الأساسية التي يتمسك بها في كتاباته، ويمكننا بالتالي أن نقول إن فيرابند يستمد جذور فلسفته الشكية من التراث الشكي للفلاسفة اليونانيين، فعندما يواجه الشكاك فكرة أو اعتقاداً، فإنه يحاول إثباتها وتفنيدها في نفس الوقت، ويتمسك بأسباب قبولها ورفضها على قدم المساواة، إذ يمكن فهم من ذلك أن أصول ومنشأ فكرة النسبية تعود إلى التراث الفلسفي للفلاسفة اليونانيين، خاصة الفلاسفة السوفسطائيين.

---

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 25.

[2] المصدر نفسه، ص 26.

فيرابند شديد التحمس للنسباوية في العلم وكان عمل فيراند البارز ضد المنهج ليقوض تصور النهج العلمي الواحد الثابت دائما واذا كانت المناهج ذاتها نسبية أو نسباوية أي بالنسبة لطبيعة المشكلة المطروحة للبحث فلا بد أن يؤكد فيرابند على أن كل شيء في العلم نسباوي.[1]

ويفهم من ذلك أن فيرابند يشكك في اليقين والمطلقية في العلم والمعرفة الإنسانية، خاصة في المجال العلمي، ويفتح الباب أمام النقد والتشكيك فيها، كما ينتقد المنهج العلمي ويدعو إلى التفكير خارج الإطار التقليدي، مما يؤدي إلى تحطيم فكرة الصدق والموضوعية في البحث العلمي.

[1] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، المرجع السابق، ص 324.

الفصل الثالث

حدود المقاربة الفوضوية عند فيرابند

مدخل:

رغم أن الرؤية النقدية الفلسفية التي صاغها " فيرابند " تعتبر قراءة جديدة لفلسفة العلم، إلا أنها تمشي في خطى ما بعد الحداثة، الذي يسعى إلى هدم وتقويض المعالم الأساسية للحداثة الغربية. فقد ألغى الفكر المنغلق الذي اعتمد على مفهومي العقل والحقيقة المطلقة، واتجه نحو نقد جميع الأبعاد التي استندت عليها الحداثة الغربية، وبذلك، قام ببناء فكر يستند إلى الفوضى والاختلاف والتعدد في الخطابات الاجتماعية والدينية والثقافية، وهو ما اعتبره البعض تحولًا جديداً في مسار فلسفة العلم المعاصر، حيث يعارض جميع أشكال الدوغمائية التي سادت البحث الإبستيمولوجي، ويستند هذا التيار على الوعي التاريخي بالعلم، إذ وضع "فيرابند" اللمسات النهائية في تجاوز النظرة الغير تاريخية للعلم، وأدرك العلم من خلاله بداية لا حدود لها.

إذ يمكن القول إن الرؤية النقدية الفلسفية التي صاغها " فيرابند " أثارت جدلاً حاداً بين الفلاسفة وذلك نتيجة لتحدياتها المفتوحة للنظرة التقليدية والمألوفة للعلم والحداثة الغربية، فإن رؤية " فيرابند " النقدية الفلسفية، على الرغم من أهميتها وتأثيرها، لم تكن خالية من الجدل في الوسط الفلسفي، فقد أثارت هذه الرؤية جدلاً كبيراً ومتنوعاً بين المفكرين والفلاسفة، حيث تباينت الآراء حول مدى صحة وقبولية هذا النهج الذي يستند إلى الفوضى والتعدد والاختلاف، فقد وافق بعض الفلاسفة على هذا التحول الجديد في مسار فلسفة العلم، ورأوا فيه إمكانية تجاوز المفاهيم التقليدية والقديمة للعلم، ومع ذلك، عارض آخرون هذه الرؤية واعتبروها تهديداً للمعالم الأساسية للحداثة الغربية وللفكر التقليدي المستند إلى العقل والحقيقة المطلقة.

هذا ما يدفعنا في الفصل الثالث إلى محاولة الإجابة عن السؤال التالي: **ما حدود مقاربة فيرابند الفوضوية؟**

المبحث الأول: مقاربة فكرية بين توماس كون وبول فيرابند

حيث نجد بأن كل من " كون " و " فيرابند " قد استخدم في نقده للمناهج العلمية فكرة اللامقياسية و هي عدم إمكانية المقارنة وذلك لوصف الانقطاع المنطقي بين النظريات العلمية، ويعود ذلك حسبهم لعدم وجود وقائع بريئة و محايدة من النظريات التي يمكن أن يستخدمها الباحث كمرجعية خلال إجراءه لأي مقارنة.

ويقصد باللامقياسية عدم قابلية نظريتين متتاليتين في تاريخ العلم للحكم عليهما بالمقاييس والمعايير نفسها أو للمقارنة بينهما أو الحكم بأن إحداهما أفضل من الأخرى، لأن كل نظرية لها دورها وإطارها المختلف ويكون الحكم عليها فقط بالنسبة لظروفها ولا توجد محاكات عامة موضوعية.[1] والتي تعني بأنه لا يوجد هناك مقاييس مشتركة بين نظريتين مختلفتين يمكن من خلالها المفاضلة بينهما.

وتعني اللامقياسية كذلك اللاقابلية للقياس وفق الوحدات نفسها، ضمن فلسفة العلم، النظريات غير القابلة للمقارنة، بمعنى متطرف، غالبا ما توصف بأنها غير قابلة للقياس وفق الوحدات نفسها، وهذا التعبير أول من روجه هو توماس كون في كتابه " بنية الثورات العلمية ".[2]

ويفهم من هذا السياق بأن كون هو أول من استخدم هذه الفكرة لتبيان أن كل نظرية علمية لها نموذجها الخاص والذي يختلف كليا عن أي نموذج آخر، حيث لا يمكن أن نقارن بين نظريتين مختلفتين تماما، و لا يوجد هناك ترابط بين أفكار النظرية القديمة والجديدة، و هذا ما يؤدي إلى عدم إمكانية المفاضلة بينهما.

فإن الحكم على النظرية العلمية وتقييمها لا يكون البتة بالقياس إلى نظرية سابقة عليها أو تالية لها في صيرورة التقدم العلمي، بل وفقط في إطار عصرها وتحدياتها وظروفها العلمية مما يجعل لكل نظرية مقاييسها الخاصة في ضوء نموذجها الإرشادي الذي تعمل به، هكذا نجد مفهوم اللامقياسية أو عدم قابلية النظريات العلمية للقياس المتكافئ بمنزلة بلورة للوعي التاريخي في فلسفة العلم، واعتبار النظرية العلمية فقط في ضوء الموقع الذي احتلته من تاريخ العلم، فلا تضاهيها نظرية في موقع تاريخي آخر.[3]

---

[1] كارل بوبر أسطورة الإطار في الدفاع عن العلم والعقلانية، تر: يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، العدد 292، الكويت، ماي 2003م، ص 266.

[2] تدهوندرتش، دليل إكسفورد، المرجع السابق، ص 814.

[3] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، المرجع السابق، ص 403.

إذا فاللامقياسية تتمثل في عدم وجود لغة علمية واحدة ومشتركة تتفق عليها جميع النظريات والنماذج بإختلافها، و تشكل قاسما مشتركا لمقاييسها، وذلك لأن المفاهيم والمصطلحات المستخدمة في تقاليد نماذج مختلفة غير متكافئة، فالمفاهيم التي تتشابه في اللفظ والإملاء في الأصل لا تحمل معنى واحد مشترك بل تتغير المعاني وفق تغير النظرية أو النموذج.

إن النماذج الإرشادية غير قياسية، إذ ثمة انقطاع أو قطيعة بين المفاهيم النظرية الأساسية المختلفة في العلم، ومن ثمة فإن حركة العلم، أو لنقل النظريات العلمية أو النماذج الإرشادية الجديدة ليست نتيجة منطقية ولا تجريبية كالنظريات السابقة عليها، إنها لا قياسية وحقائقها نسبية، وفي كل حقبة علمية أو مع كل ثورة علمية تكون السيادة لنموذج إرشادي له العلية.[1]

وهذا ما يوافق قول فيرابند حيث قصد باللاقياسية عدم إمكانية المقارنة بين المعارف المتتابعة التي تنتمي إلى نماذج مختلفة.[2]

والقصد من هذا أن مراحل العلم المتتابعة تخاطب مشكلات مختلفة، وبالتالي قد لا تكون هناك مقاييس مشتركة لقياس نجاحها، ومن خلال هذا يشترك فيرابند و كون في اسم اللاقياسية اللذان أطلقاه على هذا المفهوم.

ويتجلى لنا وجه الشبه بين كل من طرح كون و فيرابند حول فكرة اللامقياسية في أن كلاهما تبنى اللامقياسية في العلم، فلا يجوز أن نماثل أو نقارن بين نظريتين علميتين مختلفتين في الزمان والنسق مثلا نظرية بطليموس و نظرية كوبرنيكوس فلا يمكن أن نقول بأن نظرية بطليموس أفضل من نظرية كوبرنيكوس أول العكس، وبالتالي يمكن أن نقول بأن كلاهما صحيح وأن كل نظرية صحيحة في عصرها وزمانها ونسقها الخاص ولا يمكننا المفاضلة بينهما، وهو ما يقودنا إلى عدم وجود لغة علمية موحدة وتتفق عليها النماذج المختلفة، والتي تشكل قاسما أو أرضية مشتركة لمقايستهما.

وهو ما ذهب إليه فيرابند أيضا الذي يقصد بها عدم إمكانية المقارنة بين المعارف المتتابعة التي في حقيقة الأمر تنتمي إلى نماذج مختلفة، أي بمعنى عدم وجود مقاييس مشتركة لقياس نجاحهما.

كذلك يتفق كون مع فيرابند في فكرة النسبية، فبالنسبة لكون تتمثل النسبية في النماذج الإرشادية التي يمكن النظر إليها باعتبارها تستجيب إلى عوامل مختلفة ومن ثم يتعذر التفاهم بينهم ويستحيل حسم الخلاف باللجوء إلى أي لغة خارج النموذج الإرشادي، بمعنى أن الحوار بين الثقافات هو حوار طرشان.[3]

---

[1] توماس كون، بنية الثورات العلمية، المرجع السابق، ص 12

[2] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 24.

[3] توماس كون، بنية الثورات العلمية، المرجع السابق، ص 14.

وعلى غرار فيرابند نجد بأن كون يهاجم أيضا التمييز التقليدي في سياق الكشف والتبرير، غير أن أول فيلسوف صاغ هذا التمييز في صورة واضحة هو هانز ريشنباخ الذي أستخدمه لأول مرة في كتابه " الخبرة والتنبؤ " وقد أراد من وراء التمييز الحاسم بين هذين السياقين التأكيد على عدم وجود طريقة لاكتشاف النظريات، وعلى أن عملية الكشف قد تكون موضع اهتمام علم النفس والتاريخ لا الفلسفة وانتهى إلى أن نظرية المعرفة تهتم فقط بسياق التبرير.[1]

فلم يكن فيرابند هو الفيلسوف الوحيد الذي اعترض على التمييز الحاسم بين سياق الكشف وسياق التبرير، فمعظم الاتجاهات النسبية المعاصرة في فلسفة العلم لا تأخذ بهذا التمييز، ومن بين هؤلاء نجد" توماس كون" ودادلي شابير الذي يعتقد أن سياق الكشف و سياق التبرير ليس سوى وجهان متقابلان لعملة واحدة، أو يسيران جنبا إلى جنب على حد تعبير " كارل همبل ".[2]

تتقاطع وجهة نظر كون لتاريخ العلم مع منظور فيرابند حيث جعل توماس كون من التاريخ وعاءا وسندا لنظريته في تطور العلم فيفتح كتابه ومرتكز فلسفته " بنية الثورات العلمية " بالقول : " أن الهدف من هذه الدراسة، هو صياغة مفهوم مختلف كليا عن العلم، ومنبثق من السجل التاريخي للبحث العلمي ذاته".[3]

توماس كون يقيم بنيانه لتاريخ العلم وفلسفته على أساس " الثورة " التي هي الانتقال من نموذج إرشادي قياسي (Paradigm) إلى آخر، فيما يمكن اعتباره بمنزلة الإعلان الصريح لحلول الوعي التاريخي في صلب فلسفة العلم.[4]

أراد كون أن يحدث ثورة تاريخية في دراسته للمعرفة العلمية، فتاريخ العلوم عنده يتمثل في تحديد العلاقات بين النظريات والوقائع من ناحية وعلاقات مختلف النظريات العلمية القديمة والمعاصرة فيما بينها من ناحية ثانية، فنيوتن استفاد من الفلسفة اليونانية الأبيقورية والأرسطية، والأفلاطونية وغيرها من المدارس الإغريقية القديمة في صياغة فيزيائيته ونظرياته.[5]

---

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 20.

[2] المصدر نفسه، ص 21.

[3] كريم موسى حسين، الملامح الماركسية في فلسفة توماس كون، العدد 303، بغداد، 2013م، ص 95.

[4] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، المرجع السابق، ص 397.

[5] توماس كون، وظيفة لتجارب الفكر في الثورات العلمية، تح: إيبان هاكينغ، تر: سيد نفادي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1976م، ص 46.

كما حاول توماس كون أن يسترشد بالتاريخ محاولا جهوده للالتزام بمسار العلم منذ أن أعلن كوبرنيكوس ثوريته ضد بطليموس، فاستخدم كنموذج للثورة العلمية وهو ما جسده في مؤلفه " الثورة الكوبرنيكية " ليتعلق ويتفصل في مسار الثورات، وبحكم اضطلاعه بتدريس تاريخ العلم تمكن من الجمع بين شمول الثقافة التاريخية الخاصة بالعلم وبين عمق الثورة الفلسفية.[1]

ويجدر القول بأن من بين أبرز العوامل التي ساعدته في استحضار الوعي المتقدم بتاريخ العلم في فكره هو علمه الغزير بهذا التاريخ.

وعلى الرغم من اتفاق كون وفيرابند في العديد من المواضيع الا أنه يوجد هناك اختلافات جوهرية عديدة، حيث يعتقد كون بأن العوامل الخارجية غير المنطقية تلعب دورا هاما جدا، وحتى عندما يتعلق بقبول أو رفض أي نظرية جديدة، فكون يسلم بوجود قواعد عامة تمثل الأسس التي يعتمد عليها العلماء.

حيث ينظر توماس كون إلى التغيير العلمي من فكرة النموذج البراديغم إلى آخر باعتباره نقلة صوفية لا يمكن التحكم فيها من خلال قواعد عقلية، وإنما تقع برمتها داخل إطار سيكولوجيا وسوسيولوجيا الكشف العلمي، لا داخل منطق الكشف العلمي.[2]

وعلى عكس فيرابند الذي يدعو بالتعددية المنهجية فإن توماس كون يدعوا إلى فكرة وجود منهجين فهي تمثل فكرة النموذج البراديغم، التي تمثل فترة زمنية معينة، فاستخدم توماس كون البراديغم الذي يعني به الإطار النظري والمنهجي المشترك يمكن ضمنه طرح وحل مشاكل علمية تحوز معنى عادة ما تتأسس على إنجاز مفرد، مثل عمل نيوتن الذي حاول العلماء من بعده إكماله ومحاكاة أسلوب صاحبه في البحث، تقريبا البراديغم نظير التخصص العلمي أو برامجه البحثي المهيمن.[3]

استخدم كون مصطلح البراديغم في مجال عريض من المعاني المتباينة، فبالإضافة إلى كونه نموذجا يتحدد فهو مساعد على الكشف، وهو موجه وهو مجموعة من الإيضاحات عريضة وشبه معيارية لنظريات مختلفة في تطبيقاتها التجريبية والرصدية والتصوراتية.[4]

---

[1] شوقي جلال، على طريق توماس كون، رؤية نقدية لفلسفة تاريخ العلم في ضوء نظرية توماس كون، دراسات مستقبلية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، د.ط، 1997م، ص 63.

[2] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 23.

[3] ستيف فولر، كون ضد بوبر، الصراع من أجل روح العلم، تر: نجيب الحصادي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2012م، ص 164.

[4] هيلي باتريك، مقدمة لفلسفة العلم المعاصرة، صور المعرفة، تر: نور الدين شيخ عبيد، مر: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، ط1، 2008م، ص 160.

كما يذهب كون أيضا للقول بأن النماذج (Paradigm) التي تسود العلم في عصر من العصور كالميكانيكا النيوتنية أو ديناميكا أرسطو هي التي تشكل نظرية العلم ومن ثم فالنظريات العلمية تحاكي تلك النماذج أكثر مما تحاكي الواقع، فالنماذج عند كون هي الأساس في البحث العلمي وليس الملاحظة لأن الملاحظة مرتبطة بالنظرية والنظرية السابقة عن الملاحظة.[1]

ويختلف كون مع فيرابند في فكرة تطور العلم فمن وجهة نظر كون الذي يرى بأن" تطور العلم يتم من خلال الانتقال من نموذج إلى آخر بحيث لا تشكل التجارب الخطوة الأولى بل الخطوة الأخيرة وهذا ما قاله فتجنشتين عن فكرة اللعب" في سبيل توضيح بعض أوجه النموذج الذي يذكرها، يبين لنا أنه لا يمكن التصريح بالشروط الضرورية والكافية لكي يكون نشاطا مولعا، وعندما نحاول ذلك فإننا نحصل على صورة ثابتة على نشاط يطابق تعريف اللعب، ولكننا لا نريد أن نعيده كذلك، أو على نشاط يستبعده تعريف اللعب ولكننا نريده لعبا.[2]

من وجهة نظر كون، فهو يرى بأن الأمر نفسه ينطبق على النماذج، فعندما نحاول تحديد خاصية دقيقة ومميزة لنموذج في الماضي أو في الوقت الحاضر، نجد دائماً عنصراً موجوداً ضمن النموذج ينتهك تلك الخاصية المميزة.

يؤكد كون أن تحولات البراديغميات هي ثورة علمية، وأن الانتقال المتتالي من براديغم إلى آخر عبر ثورات هو براديغم التطور العادي لأي علم ناضج، ففي القرن الثامن عشر قدم نيوتن براديغما ومن الملاحظ أن كون أكد أن براديغم الانزياح من براديغم إلى آخر عبر ثورة هو الصفة المميزة للقالب في الفترة السابقة لأعمال نيوتن.[3]

الأزمة كثيرا ما تطول قبل أن ينتبه العلماء إلى عجز النموذج السابق، وهذا ما يفسر إرجاء العلماء الأزمة في بداية الأمر إلى نفس الأدوات وليس ضعف في النموذج نفسه، قبل الشروع في ابتكار نموذج جديد، فالنموذج القديم يبقى يمارس سلطته بحيث لا يكفي بروز أوضاع مستجدة يصبح من المتعذر معها على النموذج القديم أن يحتفظ بقدرته على تفسير الظواهر.[4]

---

[1] آلان شالمرز، نظريات العلم، المرجع السابق، ص 97.

[2] المرجع نفسه، ص 99.

[3] هيلي باتريك، مقدمة لفلسفة العلم المعاصرة، صورة المعرفة، المرجع السابق، ص 162.

[4] ماها قنوت، مجلة المعرفة مجلة ثقافية شهرية افتتاحية، تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، العدد 459، ديسمبر 2001م، ص 22.

المبحث الثاني: مقاربة فكرية بين إمري لاكاتوش وبول فيرابند:

رغم عدم إقراره بشكل مباشر إلا أن لاكاتوش كان ينتهج الفوضوية في فلسفته وذلك ما أقر به فيرابند في كتابه ضد المنهج حيث كتب إهداء وتكريما له، في ذكرى مرور سنة من وفاته حيث يقول فيرابند: "إلى إمري لاكاتوش، صديقي، وأخي في الفوضوية".[1]

قد بدأت صداقة " لاكاتوش " مع " فيرابند " في البدايات الأولى لتكوينهما، وزاد تقاربهما عندما كان كل منهما ينادي بالتعددية والفوضوية في المناهج العلمية، وقد كان تقدير " فيرابند " لـــ" لاكاتوش " نابعًا من إعلانه بأنه فوضوي متنكر، حيث إن " لاكاتوش " أخفق في تعريف حد الزّمن الذي ينبغي بعده أن يترك برنامج بحث متفسخ، أين صرح " لاكاتوش " بأنّ لديه ميتودولوجيا أكثر تطوراً، ومع ذلك فإنه عندما كشف عن أسسها اتضح أنها ليست ميتودولوجيا على الإطلاق[2].

حيث كانت فلسفة لاكاتوش وحسب إعتقاد فيرابند فوضوية مستترة ومضمرة، حيث يلتقي فكرهما ويتقاطع في نظرية لاكاتوش حول برامج البحث والتي من خلالها حاول لاكاتوش أن يشجع جميع البرامج العلمية دون استثناء، فهو يدعو الباحث العلمي من خلال فكرته إلى عدم التشبث بأفكاره وبرنامجه، بل يجب عليه أن لا يلتزم بالأحادية ويتحلى بالتعددية حيث يقول: " لا يجب على المرء أن يسمح قط لبرنامج البحث أن يصبح عقيدة راسخة لا تتغير أو نوعا من القسوة العلمية، تنصب نفسها كحكم بين إيضاح ولا إيضاح، ذلك مثل القسوة الرياضية التي تنصب نفسها كحكم بين برهان ولا برهان ".[3]

وعلى الرغم من هذه الخلفية المبعثرة، تمكن الفيلسوفين من توطيد صداقتهما، ولم يقتصر التواصل بينهما على المستوى الشخصي فحسب، بل تجاوزه إلى المستوى الفلسفي والابستيمولوجي. حيث يُذكر لقاءهما البارز الذي جمعهما في عام 1972 في إحدى الاحتفاليات التي نظمتها جامعة برلين، حيث قام كل منهما بتبادل النقد والمناقشة. في هذا السياق، صرح "لاكاتوش" لـــ "فيرابند" بتعبير مثير قائلاً: " إنه لديك أفكار مدهشة، لماذا لا تسجلها وأكتب أنا رداً عليها؟ وننشر هذا وذاك في عمل واحد، وأعدك بأنه سيكون مبعث سرور لكلينا"[4]

---

[1] Paul Feyerabend , Against Method, Revised Edition, Verso, London, 1992, P.4

[2] السيد نفادي، اتجاهات جديدة في فلسفة العلم، عالم الفكر، المجلد 25، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996م، ص 109.

[3] هري علي، البرمجة عند امري لاكاتوش، مذكرة لنيل شهادة الماجيستر في الفلسفة، جامعة قسنطينة، 2007-2008، ص 236.

[4] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، المرجع السابق، ص 418.

وقد كان " لاكاتوش " يقصد بهذا المشروع إغناء فلسفة العلوم من خلال جدلية قائمة بين العقلانية والفوضوية، ولو أن " لاكاتوش " لم يكن من أنصار ذلك المذهب.

كما أنه قد رفض فكرة النماذج والأحادية التي يتبناها كون في فلسفته موافقا بذلك النقد فكرة كل من فيرابند و بوبر اللذان يخالفان كون الرأي حيث يبدي أسفه وامتعاضه الشديد من ما ذهب إليه كون ويتجلى ذلك في قوله : "وللأسف هذا هو الموقف الذي يميل كون إلى التمسك به والدفاع عنه: وفي الحقيقة، ما يسميه ب" العلم السوي" لا شيء سوى برنامج بحث حقق احتكارا. لكننا في الواقع، نجد أن برامج البحث قد حققت احتكارا كاملا لكن بصورة نادرة ولفترة قصيرة نسبيا،...فتاريخ العلم كان، ويجب أن يكون تاريخ برامج بحث منافسة أو إذا رغبت نماذج، لكنه لم يكن، ولا يجب أن يصبح، تتابع فترات من العلم السوي: وكلما بدأت المنافسة بسرعة كلما كان ذلك أفضل للتقدم. فإن التجمع النظري أفضل من الوحدانية النظرية: وفي ما يخص هذه النقطة نجد أن بوبر وفيرابند محقان بخلاف كون".[1] وهذا ما يؤكد و يظهر اعتراف لاكاتوش بالتعددية.

يعتبر لاكاتوش أن تعدد البرامج البحثية واختلافها يخلق أو بالأحرى يبعث دينامية هائلة، والتي تظهر تداعياتها وتجلياتها، في الآثار الإيجابية التي تلقي بثمارها على عجلة تطور وتقدم العلم، حيث يقول : " على هامش الكشافة والأزمات، فإن التنافس بين برامج البحث يعمل كمثير أو كحافز للتقدم. دون الإخلال بنظام البحث، فإن التنافس، يضاعف الملاحظات المفسرة ويقوي تقدم الأنساق النظرية".[2]

يرى لاكاتوش بأن: "العمل المعاصر في برامج متنافسة يقوض أطروحة كون المتعلقة باللا قياسية السيكولوجية للنماذج المنافسة ".[3] هذا ما يؤكد دعوته لفوضوية مقنعة كما أطلق عليه فيرابند.

إن دعوى فيرابند ضد المنهج تدخل في معركة ضد الميثودولوجيات المفروضة فهي أنها تقدم قواعد العلم أو السلوك للمشتغلين بالعلم، وعلى هذا يجد فيرابند في إمري لاكاتوش أبا آخر مشاركا له للفوضوية.[4]

لقد كانت علاقة امري بفيرابند تتعدى مجرد كونها صداقة فحسب فقد كانت تتجاوز النطاق الشخصي لتظهر قوة هذه العلاقة في مستواها الفلسفي و الإبستيمولوجي أساسا.

---

[1] هري علي، البرمجة عند امري لاكاتوش، المرجع السابق، ص 236.

[2] المرجع نفسه، ص 237.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] آلان شالمرز، نظريات العلم، المرجع السابق، ص 135.

فبالرغم من تشاركهما العديد من الأفكار والتي دفعت بفيرابند إلى القول بأن لاكاتوش أخ و رفيق في الوفوضوية إلا أنه كان هناك الكثير من النقد الموجه بينهما حيث يذكر فيرابند في مقدمة كتابه " ضد المنهج " : إن هذا البحث يشكل الجزء الأول من كتاب حول العقلانية الذي كان يتوجب علينا إنجازه نحن الإثنين. كان علي والحديث دوما لفيرابند مهاجمة الموقف العقلاني، في حين كان يتوجب على لاكاتوش إعادة تشكيله أو إعادة صياغته والدفاع عنه، وكان يتوعد أن يحيل صديقه فيرابند إلى لحم مفروم كما ينقله فيرابند نفسه في مدخله كتعبير عن النقد الحاد الذي كان سيتبادلانه ويكيله كل واحد منهما تجاه الآخر من خلال المناظرة الحمية الوطيس التي كانت ستدور بينهما.[1]

فرغم العلاقة القوية التي بينهما لم يسلم فيرابند من نقد لاكاتوش الذي لولا الحادث الذي أدى إلى وفاته سنة 1974م، لكان قد حول فيرابند إلى لحم مفروم كما قال هذا الأخير، حيث يصرح بأنه لطالما كان لاكاتوش ناقدا له في أفكاره بل أنه كان عازم على تحطيمه من خلال الدفاع عن النقد الذي وجهه فيرابند للعقلانية، في العمل الذي كان يفترض أن يكون مشتركا بينهما والذي كان سيتكفل بشطره الثاني لاكاتوش قبل أن يتوفى.

ويصرح فيرابند في مدخل كتابه " ضد المنهج " بأن هذا العمل هو عمل منقوص، لأنه كان يفترض به أن يكون ثنائية بينه وبين لاكاتوش، وبالرغم من ذلك فإنه قرر نشره كما هو وذلك لتكريم لصديقه ورفيقه واظهارا لمدى التأثير الكبير والعظيم الذي تركه لاكاتوش على فكره.

لقد بدأ التحضير لهذا المشروع قبل هذه السنوات بكثير، فهو يعود إلى لقائهما الأول سنة 1964م ولكنه كان مقتصراً على رسائل وملاحظات بين الرجلين، وتجلى كذلك من خلال تلك المحاضرات التي كان يقيمها كل منهما في الجامعات، ويتأسف "فيرابند" بشدة لأن هذا الكتاب المزدوج لم ير النور، وبذلك جاء كتاب ضد المنهج منقوص من أهم صفة فيه، وهي السجالية، ومع هذا جعل "فيرابند" هذا الكتاب تكريماً لصديق وأخ في الفوضوية.[2]

ويقف لاكاتوش موقفا مغايرا لما ذهب إليه فيرابند في دعوته للتعدد ووفرة النظريات، فإن لا كاتوش في موقف يعد فيه التماثل والانتظام مضرا، ليس بالعلم فقط بل ومضعفا بحضوض النمو الحر للفرد.[3]

---

[1] هري علي، البرمجة عند امري لاكاتوش، المرجع السابق، ص 250.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] المرجع نفسه، ص 252.

حيث يختلف لاكاتوش عن فيرابند في وجهة نظره بشأن التعدد ووفرة النظريات، إذ يرى لاكاتوش أن التماثل والانتظام يمكن أن يكونا ضارين، ليس فقط في المجال العلمي ولكن أيضاً في إضعاف نمو الفرد، هذا يعني أن لاكاتوش يروج لفكرة أن الالتزام بنماذج وأنماط محددة يمكن أن يكون مقيداً ومضعفاً لحرية نمو الفرد، وهذا الموقف يتناقض مع وجهة نظر فيرابند التي تدعو إلى التنوع والتعدد في النظريات والأفكار.

وعلى غرار هؤلاء الفلاسفة الذين عاصروه فقد تلقى فيرابند العديد من الانتقادات بخصوص فلسفته التعددية ومنهجه الفوضوي، نجد أن شالمرز ينتقد فيرابند بسبب دعوته للتعددية المنهجية، حيث يروج فيرابند للأفكار التي تعرقل البحث العلمي والتي يصفها شالمرز بأنها تسبب صعوبات كثيرة مجال البحث العلمي كما يعارض شالمرز أيضاً اعتبار الفوضوية وعدم القبول بها في المجال العلمي، حيث يعتبر أن العلم يتطلب النظام والصرامة، وأنه لا مكان للفوضى فيه، حيث يؤكد شالمرز أن العلم يتيح إمكانية ضبط القوانين، حتى ولو كانت بصورة نسبية، بالإضافة إلى تفسير الظواهر والتنبؤ بها، ويشير إلى أن ذلك لن يتحقق إلا بوجود منهجية محكمة يتبعها الباحثون، وهم العلماء وليس الإنسان العادي ويلاحظ أن العلم يتميز عن المعارف الأخرى بالموضوعية والعقلانية، بالإضافة إلى ذلك، يوضح شالمرز أن المعرفة العلمية ليست مرتبطة بالعوامل الذاتية أو الأذواق الشخصية.

فهو يدافع عن العقائد والأنساق الأسطورية بالسلاح نفسه الذي كان الوضعيون يدافعون به عن العلم، إذ يرمي العلم بالعيوب نفسها التي تجند لها الوضعيون، لكن من أجل الدفاع عن دعاوى معارضة لدعاويهم، غير أنهم تبنوا أدوات المنطق الواضحة في الدفاع عن آرائهم، بينما يفضل هو السجال الفوضوي ويشيد بالأسطورة بوصفها بناء فكريا مهما، ويرى أن الأيديولوجيات العقلانية هي التي زرعت فكرة سذاجة الأسطورة في الأذهان، ونعتها باللاعقلانية.[1]

إن الإعتبارات التي ذكرها فيرابند في المقتطفات يرى شالمرز أنها من الضروري أن تضيف إلى ذلك أنه إن لم تكن الأحكام الفردية والرغبات الذاتية بمعنى أنها لا تنقاد للتحديد بواسطة منطق ملزم فإن ذلك لا يعني أن تلك الأحكام والرغبات في منأى من طائفة الحجاج العقلي، إننا نستطيع أن ننتقد الأذواق الفردية وذلك بأن نبرز مثلا أنها غير متماسكة للشكل الواضح للعيان، أو أن لها نتائج لا تقر لها عين من يدافع عنها قطعا.[2]

[1] عوض عادل، الأبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، دار الوفاء الدنيا للطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2004م، ص 100.

[2] آلان شالمرز، نظرية العلم، المرجع السابق، ص 139.

يمكن أن نفهم من خلال هذا أن شالمرز ينتقد فيرابند بسبب وجهة نظره في الحرية الفردية ويشير إلى أن هذه الحرية غير قابلة للتطبيق في المجال العلمي على عكس المجال السياسي، إذ يرى شالمرز أن الذوق الشخصي يمكن أن يشكل خطراً على الباحث، حيث يمكن أن يؤدي إلى انحراف البحث العلمي، كما يعتبر أن الأذواق الشخصية غير المتماسكة لا يمكن أن تكون أساساً للعلم أو أدلة علمية، أي بمعنى آخر يؤكد شالمرز أن العلم يجب أن يكون مستقلاً عن التفضيلات الشخصية والذوق الفردي.

ونجد أيضا الدكتور محمد أحمد السيد ينتقد فيرابند من خلال مهاجمته المنهج العلمي والعلماء هجوما ضاريا بل ويهاجم فكرة العقلانية ذاتها، ويدافع عن التنجيم والسحر والأسطورة واللاعقلانية دفاعا مجيدا، وهي أمور تودي إلى البلبلة وسوء الفهم خاصة في ظل المناخ الفكري السائد في بلادنا والذي لا يحتوي ترف مثل هذه المناقشات.[1]

فقد عارض الدكتور محمد أحمد السيد ما يدعو له فيرابند من خلال تبنيه فكرة اللاعقلانية واقحام السحر والتنجيم والأسطورة في مجال العلم وجعلهم في كفة موازية مع مناهج العلم، وكذلك رفضه التام لفكرة العقلانية، ورفضه للمنهج العلمي والعلماء.

وبالرغم من أن الرؤية النقدية الفلسفية التي صاغها "فيرابند" تعتبر قراءة جديدة لفلسفة العلم سايرت تيار ما بعد الحداثة، الذي سعى إلى هدم وتقويض المعالم الأساسية للحداثة الغربية، وألغى الفكر المنغلق الذي ارتكز على مقولتي العقل والحقيقة المطلقة، واتجه إلى نقد كل الأبعاد التي قامت عليها الحداثة الغربية ليشيد بذلك فكرا يقوم على الفوضى والاختلاف والتعدد في الخطابات الإجتماعية والدينية والثقافية، فقد اعتبرها البعض تحولا جديدا في مسار فلسفة العلم المعاصر مناهض لكل أشكال الدوغمائية التي طغت على البحث الإبستيمولوجي، ويتأسس على الوعي التاريخي بالعلم ذلك لأن "فيرابند" وضع المسمار الأخير في نعش النظرة اللا تاريخية للعلم، وبلغ الوعي التاريخي بالعلم معه انطلاقة لا تحدها حدود.[2]

غير أنها أثارت جدلا كبيرا في الوسط الفلسفي، وذلك من منطلق أن كل فلسفات العلم قد قدمت منهجا علميا ملائما للمارسة العلمية بعد قيامها بنقد النظريات السابقة لها، وكما يعاب على فيرابند عدم تقديمه بديلا معرفيا بعد نقده جميع المناهج، على خلاف فلاسفة العلم السابقين، الذين انتقدوا منهجا معينا

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، المصدر السابق، ص 05.

[2] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، المرجع السابق، ص 420.

ثم قدمو بديلا عنه، فمثلا بوبر قدم مبدأ التكذيب بديلا لمبدأ التحقيق، وقدم كون النموذج الإرشادي بعد نقده لبوبر، ولاكاتوش قدم برامج الأبحاث العلمية بعد نقده لبوبر وكون.[1]

وأما فيراباند لم يقدم بديلا معرفيا بعد أن طال نقده الجميع، والأمر الذي زاد في تعتيم الرؤية هو إقحامه لمختلف المعارف الإنسانية في القرارات العلمية بعد تمرده على العقلانية وتأكيده على حضور اللامعقول في العلم، فقد رفضها البعض لأنها اكتفت بهدم وتقويض العلم والعقلانية دون المساهمة في حل المشكلات النظرية والمنهجية التي يطرحها العلم المعاصر.[2]

إن التعددية التي تبناها "فيرابند" انطلاقا من شعاره "كل شيء حسن" تقضي إلى تعدد النظريات والمناهج التي تؤدي إلى خصوبة التفكير، وتمنح الفرصة لإظهار الإبداعات الإنسانية، هي أمر مبالغ فيه قد يعود إلى شكل من أشكال الدوغمائية، ويرى "فيرنر ديدريخ" أن " فيرابند في ظل نقده للميثودولوجيات المعيارية التي تقوم على مجموعة من القواعد الثابتة، لم يقدم لنا أي مضمون وصفي لما نعتبره المعيار الفاصل للعلم، حيث أن الدعوة لمبدأ "كل شيء جائز" تعني الإنتهازية، وأن نقد "فيرابند" المدعم بطريقة تاريخية لا ينتهي إلى شيء".[3]

إن المنهج العلمي في نظر فيرابند لم يعد المنهج الوحيد، في اختيار النظريات العلمية ومقارنتها ودعا إلى تعدد المناهج العلمية، هذه الدعوة تكون مقبولة بالنظر إلى طبيعة الموضوع، فالتعدد ممكن حينما يتعلق الأمر بالدراسات الإنسانية،[4] ففي مجال الدراسات التجريبية الطبيعية، يتم قبول المنهج التجريبي الذي يعتمد على الملاحظة والتجربة، وهذا الأمر تم تأكيده في الاتجاهات الوضعية، سواء كانت القديمة مع علماء مثل "فرانسيس بيكون" ودافيد هيوم"، أو الوضعية الحديثة بدءاً من "أرنست ماخ" وجماعة فيينا فالبحث عن الحقيقة يتطلب استقراء الواقع الذي يقدم دلالات محددة تساعد في بناء النظرية العلمية.

إلا أن فيرابند يدعي أن الحقيقة تختلف عما تقول به النظرية، ففصل وبصورة مطلقة بين الحقيقة الموجودة في الواقع، وبين النظرية التي تصف هذا الواقع، مدعيا أن هذه النظريات ما هي إلا انعكاسات

---

[1] العالم عبد الحميد، إشكالية المنهج في الفلسفة المعاصرة من الأحادية إلى الفوضوية بول فيرابند أنموذجا، المرجع السابق، ص 1111.

[2] بوعلام الزهرة، الإبستيمولوجية الفوضوية عند بول فيرابند والتفسير اللاعقلاني لتطور العلم، المرجع السابق، ص 569.

[3] خالد قطب، منطق التقدم العلمي، دار قباء، القاهرة، 2018، ص ص 195-196.

[4] أنور أبو النور أحمد وآخرون، سلسلة الفلسفة والعلم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، د.ط، د.ت، ص 18.

لتصورات سابقة محملة بأفكار إيديولوجية وثقافية، ولئن كان العلم يستمد مبررات وجوده وتطوره من نظم ثقافية معينة، فإنه لا يلبث أن يتخطاها، لما له من فعالية نوعية خاصة، لا تتكافأ مع العوامل الباعثة على قيامه، ويتطابق معها، فهو يتزود منها ريثما ينطلق متخذا مساره الخاص.[1]

من بين اللذين اعترضوا على طرح فيرابند حول فكرة اللا مقياسية هو العالم "لورد" موضحا أن النظريات المتنافسة قابلة للمقارنة من نواحي عديدة، ولا يمكن أن تكون النظرية منافسة للأخرى أو أفضل منها، فهناك أمور ثابتة لا يستهان بها بالنسبة للتغير العلمي كالملاحظة والمعنى، فالعلماء في نظره يستخدمون الحدود العلمية نفسها.[2] حيث تشترك الحدود العلمية في علاقات أساسية مع كل نظرية جديدة، ولا يمكن للاعتقادات الجديدة أن تغير بشكل جذري معاني الحدود المستخدمة. في بعض الأحيان تحدث تشابهات كبيرة في معاني الحدود المستخدمة قبل وبعد الثورات العلمية، مما يسمح بوجود أنماط مختلفة للمقارنة بين النظرية القديمة والنظرية الجديدة التي تحل محلها.

فاللا مقياسية واقعة ثقافية أكثر مما هي علمية، وبالتالي فإن الإقرار باللا مقياسية في العلم لا يمكننا من تحديد ما إذا كانت الرؤية الجديدة تفسيرها يفترض أن تفسره، أو أن إطارها يمتد إلى مجالات أخرى مختلفة.[3]

فإذا ما كان يدعو إليه فيرابند صحيحا فإن ذلك سوف يؤدي إلى عزل العلماء عن بعضهم البعض ويعيش كل عالم في نسق المعاني التي كونها لنفسه، فتكون المعاني مختلفة بين العلماء مما يجعل الاتصال مستحيلا بينهم، ولا يستطيع أي عالم فهم نظريات الآخر وتصوراته، وهذا يؤدي إلى فقدان خاصية الاتصال المعروفة ظ في العلم بين الأنساق العلمية المتتابعة، كما يقتضي على النقاش بين العلماء، فيصير كل واحد منهم أسير نسيج معانيه الخاصة.[4]

كما أن القول بالتغيير الجذري الذي تبناه فيرابند يؤدي إلى خلخلة المفاهيم العلمية، ويؤثر في البناء العلمي، الذي يسعى إلى ضبط المفردات والأفكار في علاقات دقيقة نسبيا، وبالاستعانة بالقوانين العلمية التي تكسب الدلالة نصيبا من الاستقرار، وتقلص الهوة بين التأويلات المتعارضة، لأن الأنساق

---

[1] قنصوه صلاح، فلسفة العلم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 1998م، ص 87.

[2] عوض عادل، منطق النظرية العلمية المعاصرة وعلاقتها بالواقع التجريبي، دار الوفاء الدنيا للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2006م، ص 318.

[3] عوض عادل، الأبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، المرجع السابق، ص 66.

[4] ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم، المشكلات المعرفية، ج2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، 1984م، ص 129.

العلمية وخلافا للأنساق الفلسفية أقل تعرضا للتضارب والتأويل، فلازالت المفاهيم والقوانين والنظريات العلمية كثيرة التداول بالدلالة نفسها الأولى تقريبا على الرغم من مرور زمن عليها، ويمكن القول أن الدلالة وإن لم تظل قادرة في الحفاظ على ثباتها بصفة تامة، فكذلك تغير الدلالة في العلم لا يكون جذريا كما اعتقد فيرابند.[1]

فالعلم في نظره لا يسير في سيرورة بنائية مرحلية، تتجاوز ما أتى به العلم السابق، وتعلن ما يأتى به البحث لاحقا، معنى هذا أنه حتى إذا جاز الحديث عن تقدم علمي، فيجب اعتباره تقدما احترازيا وانتقائيا فنجده ينتقد الطب العلمي المعاصر نقدا لاذعا ويؤكد على الطب التقليدي في علاج الكثير من الأمراض وبهذا الموقف يبرز فيرابند وجها مخربا للتقدم، لأن فكرة التقدم القائمة على الفوضوية تقضي على الانسجام بين الحياة والمحيط الطبيعي، كما يخرب جوانب من الخبرة البشرية، فالعلم لا يقوم على الفوضوية، إذ يؤكد لاكاتوش بأن الفوضوية الابستيمولوجية سخافة، ويتسائل أين هو الفوضوي الابستيمولوجي الذي يخرج عبر النافذة في الطابق الخمسين عوض استعمال المصعد لمجرد روح المناقضة الخالصة لديه.[2]

إن العلم يتقدم من خلال مرحلية متبعة متصلة، وهو يكتفي بإيجاد حلول لمشاكل تصادفها الممارسة الظرفية، وعنده لا تختلف نظريتان في فهم الواقع، وإنما تختلفان بقدر ما تأتيان بحلول لمشكل موضوع البحث، إذ يقول "لادون": يمكن أن يحدث تقدم إذ وفقط وإذا أظهر تتابع النظريات العلمية في أي ميدان درجة متناهية من حل فعلي للمشاكل ... في كل مرة نغير نظرية أو نأتي بأخرى مكانها، فإن ذلك التغيير يكون تقدميا إذا وفقط وإذا كانت الصيغة المتأخرة أكثر فعالية في حل المشاكل من سابقتها.[3]

فما يميز العلم هو الموضوعية، وليس الشمولية والتعددية التي نادى بها فيرابند، والتي تقبل كل شيء، فهي دعوة إلى تمجيد التلقائية والعشوائية على حساب الدقة، وقد رفض باشلار هذا الطرح إذ يقول: "إن الموضوعية تتحدد في الدقة، وفي انسجام الصفات، لا في جميع الموضوعات المتشابهة قليلا أو كثيرا وهذا شيء بالغ الأهمية إلى حد ما نجد المعرفة غالبا ما تكون أكثر أهمية بالنسبة للتقدم.[4]

---

[1] البغزاتي بالناصر، الاستدلال والبناء، بحث في خصائص العقلية العلمية، دار الأمان، المركز الثقافي العربي، الرباط، ط1، 1999م، ص 285.

[2] جان فرانسوا دورتيي، فلسفات عصرنا تياراتها، مذاهبها أعلامها وقضاياها، تر: إبراهيم صحراوي، دار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009م، ص 327.

[3] زيدان محمود فهمي، من نظريات العلم المعاصر إلى المواقف الفلسفية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ط، 1989م، ص 89.

[4] هشام محمد، تكوين مفهوم الممارسة الابستيمولوجية عند باشلار، دار الشرق للطباعة، د.ط، 2006م، ص 200.

فعلى الرغم من أن النزعة الفوضوية عند "فيرابند" كانت مناهضة لكل فكر إيديولوجي، إلا أنها وقعت هي الأخرى في قبضة الأيديولوجيا، حيث بنى فيرابند تصورا قائما على تجربة ذاتية مستمدة من ظروف سيكولوجية، ثقافية وسياسية مختلفة ساهمت في بلورة فكره الإبستيمولوجي الذي انطوى على عناصر إيديولوجية، سعى فيها إلى فرض تصوره على فلاسفة العلم والميثودولوجيا، وعلى المجتمع الإنساني في إطار مشروع " المجتمع الحر "، الذي بين فيه أن العلم مجرد إيديولوجيا من بين الأيديولوجيات المتعددة التي تفرضها الدولة على المجتمع، لهذا ينبغي فصل العلم عن الدولة[1]

[1] بوعلام الزهرة، الإبستيمولوجية الفوضوية عند بول فيرابند والتفسير اللاعقلاني لتطور العلم، المرجع السابق، ص 569.

خاتمة

خاتمة:

وفي الأخير لا يسعنا إلا القول بأن " بول فيرابند " يمثل رمزا للتجديد والثورة في مجال فلسفة العلم، فهو فيلسوف العلم الثائر و المشاغب، إذ يعتبر ظاهرة فريدة من نوعها في فلسفة العلم خصوصا والفلسفة عموما بل وحتى في الحضارة الغربية ذاتها، فهو من أهم شخصيات الفكر الفلسفي المعاصر والذي ترك إرثا عظيما من الأفكار والمفاهيم التي ساعدت في توضيح العديد من القضايا الفلسفية والعلمية، فهو رائد يستحق التقدير والاحترام، ومن المؤكد أن تأثيره في الفكر الفلسفي عامة والفكر العلمي خاصة سيظل مستمرا في العصور القادمة، مساهما بذلك في تطور الفكر الإنساني، وتحقيق تقدم جديد ومستدام.

ومن خلال ما تطرقنا إليه في فصول هذه الدراسة، يمكننا استنتاج أن " فيرابند " قدم تحليلاً فلسفياً فريداً في مجال العلم، حيث قام بنقد أسطورة العلم الحقيقي والمنهج العلمي المعتمد، وبذلك، قدم نظرية جديدة في مجال المعرفة، وهي " الفوضوية الابستيمولوجية "، والتي تنطوي على عدم الالتزام بقوانين العقل ومعايير العقلانية، وتفتح الأبواب أمام جميع الاحتمالات والبدائل النظرية والمنهجية، ويؤكد فيرابند أن السؤال حول المنهج هو سؤال زائف في جوهره، وأن العلم لم يكن ولن يكون أبداً رهينة لأي منهج محدد. بل هو مشروع حر يتجاوز أي سلطة أو قيد، حيث يتسم بالتنوع والحرية الفكرية، ففي نظرة فيرابند، المبدأ الوحيد الذي يمكن قبوله والذي لا يعرقل تقدم العلم هو "كل شيء جائز".

هذه الفلسفة تعكس رؤية فيرابند التحررية والانفتاحية تجاه العلم، حيث يرى أن التقيد بأي قواعد أو معايير قد يقيد التفكير ويمنع استكشاف الخيارات الجديدة. ومن خلال رفضه للتقييدات، يدعو فيرابند إلى استكشاف الحقائق الجديدة والتحليق في أفق الإبداع والاكتشافات العلمية، فتفسير " فيرابند " للعلم يتجاوز النهج التقليدي الذي يرتكز على المعادلات الرياضية والعلاقات المنطقية. بالنسبة له، العلم هو نشاط إنساني حيوي يتضمن مشاركة جميع الجوانب العقلية وغير العقلية للإنسان. يعني ذلك أن المناهج غير العقلية قد تسهم في تقدم وتطور العلم.

فوفقًا لفيرابند، العقل البشري ليس محصوراً في العمليات العقلية المنطقية والتحليلية فقط، بل يشمل أيضًا الخبرات الشخصية والعواطف والإدراكات اللاواعية، وبالتالي، فإن المناهج والأساليب التي تأخذ بعين الاعتبار هذا الجانب الغير عقلي قد تسهم في إثراء فهمنا للعالم وتقدم المعرفة، ومن خلال هذا النهج، يتم

تعزيز الفكر الإبداعي والتجديد في البحث العلمي، حيث يمكن للمناهج غير التقليدية واللاعقلية أن تساعد في اكتشاف مفاهيم وحقائق جديدة. بالتالي، يتم فتح المجال للتفاعل بين الثقافات المختلفة والمدارس الفلسفية المتنوعة، مما يسهم في تطور العلم بشكل أوسع وأكثر شمولًا.

وفي هذا السياق الفلسفي، يبرز " فيرابند " أهمية الاعتراف بأن العلم ليس مقتصراً على المعرفة العقلية الصرفة، بل هو تجربة إنسانية شاملة تستفيد من مصادر متعددة، بما في ذلك المناهج اللا عقلية، لتحقيق تقدم حقيقي في المعرفة وفهم العالم.

إذ تنبثق " الفوضوية الابستمولوجية " كتوجه مناهض للصورة العقلانية المرتكزة على النظام والقانون والصدق والموضوعية وقوانين المنطق الكلاسيكي الصارمة، حيث تظهر الفوضوية الابستمولوجية كنمط فلسفي يناضل ضد التصور السائد للعقلانية التي تقيد العقل وتحد من حركته الإبداعية وتقوده إلى تقييدات دقيقة وأنماط تفكير ثابتة، كما تعتبر الفوضوية الابستمولوجية استجابة فلسفية للرغبة في استكشاف آفاق جديدة للفهم والمعرفة، وتعزز الاستعداد لقبول الغموض وعدم اليقين كأساس لتجربة المعرفة، رافعة بذلك راية التحدي ضد القوانين التقليدية والمفاهيم المثبتة مسبقًا، حيث تسعى الفوضوية الابستمولوجية إلى تحرير العقل من القيود القائمة وتوسيع آفاق الفهم والاستيعاب للواقع بواسطة الاستشراف والتفكير الخلاق والتجديد المستمر، وبصفة عامة فإن انصار هذا المذهب، ينظرون الى الفوضوية كمنهج فلسفي يثير التساؤلات العميقة حول الحقائق والمفاهيم المألوفة، ويشجعون على الاستكشاف والابتكار والتجربة في سعيهم للوصول إلى تفاهم أعمق وأوسع للواقع والحقيقة.

ففي تحليله الفلسفي، لم يكتف " فيرابند " بمجرد النقد فحسب، بل تصدى للمنهجيات المعرفية التي قدمها الفلاسفة السابقون، فقد رفض قواعد العمل المنهجية التي وضعها "بوبر"، إذ اعتبر أنها لا تساهم في تطور المعرفة والبحث العلمي، بل تحول دون هذا التطور، ففي نظر " فيرابند "، لا قيمة لهذه القواعد في ساحة العلوم، وحتى محاولة "توماس كون" لم تسلم من النقد، إذ اعتبرها " فيرابند " تحمل نزعة سلطوية، حيث يؤدي التسلط العلمي إلى تقييد النقد العلمي واستبعاد التقاليد الاجتماعية الأخرى بحجة عدم توافقها مع الإنجازات العلمية داخل النموذج الإرشادي الجديد، وحتى ميثودولوجيات برامج البحث لـــ " امري لاكاتوش "، التي دافعت عن العقل والعقلانية والموضوعية، وضعت تحت مجهر النقد من قبل " فيرابند "، فقد اعتبرها مجرد تقييم نظري يفتقر إلى العمل الفعلي والتوجيه الميداني، وأنها لا تقدم قواعد للاختيار لصالح نظرية أو برنامج معين.

وبهذا التحليل الفلسفي، يظهر أن " فيرابند " يتحدى التصورات التقليدية للمنهج العلمي والميثودولوجيا ويبرز الحاجة إلى تبني نهج مفتوح وشامل يتيح التفاعل والتجاوب مع مختلف الأفكار والتقاليد والمناهج وذلك من أجل تعزيز التطور العلمي والمعرفي بصورة أوسع وأكثر تنوعاً.

ومن هذا المنطلق، يمكن القول بأن المشروع الفلسفي لفيرابند ألا وهو الفوضوية الابستيمولوجية جاء ليعارض العقلانية العلمية القائمة على فكرة أساسها أن العلم الغربي هو الوحيد دون سواه من باقي العلوم الذي يملك القدرة على استكشاف الطبيعة والسيطرة عليها، وبالتالي فهو يشكل المعيار الوحيد الذي يقاس عليه مدى تقدم وتطور الحضارة، حيث تُقدم الفوضوية الابستيمولوجية نقداً لهذه المسلمة وتسعى لتوسيع المفهوم العلمي لاحتضان مجموعة أوسع من الأنظمة المعرفية والمعتقدات، وفي هذا السياق، يتم تشجيع الاعتراف بتعددية الأفكار والمقاربات الفكرية والاعتقادات في سعينا لفهم الطبيعة والتفاعل معها. وبالتالي، يتجاوز المشروع الابستيمولوجي الفوضوي الحدود الثقافية والجغرافية، ويدعو إلى التعاون والتواصل بين الثقافات المختلفة من أجل تطوير معارفنا وتحقيق تقدم حضاري شامل يتجاوز القوالب التقليدية.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر:

❖ القرآن الكريم، عن رواية ورش.

أ/ باللغة العربية:

1- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، تر: محمد أحمد السيد، منشأة المعارف الإسكندرية، د.ط، 1997.

2- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، تر: السيد نفادي، مراجعة سمير حبا صادق، المجلس الأعلى للثقافة، 2000م.

3- بول فيرابند، ضد المنهج، تر: ماهر عبد القادر محمد علي، طبعة للطالب، الإسكندرية، 2005م.

4- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، تر: محمد أحمد السيد، منشأة المعارف الإسكندرية، د.ط، د.س.

ب/ باللغة الأجنبية:

1- Paul Feyerabend , Against Method, Revised Edition, Verso, London, 1992.

قائمة المراجع:

1- إبراهيم علي جمول، نظريات المعرفة العلمية بين المنهج والتطبيق (كارل بوبر، توماس كون، فيرابند)، دراسة تحليلية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، 2011م.

2- آلان شالمرز، نظريات العلم، تر: الحسين سحبان وفؤاد الصفا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991م.

3- البغزاتي بالناصر، الاستدلال والبناء، بحث في خصائص العقلية العلمية، دار الأمان، المركز الثقافي العربي، الرباط، ط1، 1999م.

4- توماس كون، بنية الثورات العلمية، تر: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيت النهضة، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.

5- توماس كون، وظيفة لتجارب الفكر في الثورات العلمية، تح: إيان هاكينغ، تر: سيد نفادي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1976م.

6- جان فرانسوا دورتيي، فلسفات عصرنا تياراتها، مذاهبها أعلامها وقضاياها، تر: إبراهيم صحراوي، دار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009م.

7- جلال شمس الدين، البنية التكوينية لفلسفة العلوم، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 2009.

8- خالد قطب، منطق التقدم العلمي، دار قباء، القاهرة، 2018.

9- رينيه ديكارت، قواعد لهداية العقل، تر: سفيان سعد الله، دار سراس للنشر والتوزيع، تونس، 2001م.

10- زيدان محمود فهمي، من نظريات العلم المعاصر إلى المواقف الفلسفية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ط، 1989م.

11- ستيف فولر، كون ضد بوبر، الصراع من أجل روح العلم، تر: نجيب الحصادي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2012م.

12- شوقي جلال، على طريق توماس كون، رؤية نقدية لفلسفة تاريخ العلم في ضوء نظرية توماس كون، دراسات مستقبلية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، د.ط، 1997م.

13- عبد الرحمان بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت،1977م

14- عبد الرحمان مرحبا، آينشتاين، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1983م.

15- عبد السلام بن ميس، قضايا في الابستيمولوجيا والمنطق، شركة النشر والتوزيع للمدارس، الدار البيضاء، ط1، 2000م.

16- عبد السلام صفاء علي جابر، محاولة جديدة لقراءة فريديريك نيتشه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999م.

17- عبد الفتاح محمد بدوي، فلسفة العلوم ومستقبل الإنسان إلى أين؟، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م.

18- عمار بوحوش، محمد محمود الدنيات، مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999م.

19- عوض عادل، الأبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، دار الوفاء الدنيا للطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2004م.

20- عوض عادل، منطق النظرية العلمية المعاصرة وعلاقتها بالواقع التجريبي، دار الوفاء الدنيا للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2006م.

21- فرنسيس بيكون، الأورغانون الجديد أو: الوسيلة الجديدة لاكتساب المعرفة، تر: منذر محمود محمد، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2016م.

22- قنصوه صلاح، فلسفة العلم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 1998م.

23- كارل بوبر أسطورة الإطار في الدفاع عن العلم والعقلانية، تر: يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، العدد 292، الكويت، ماي 2003م.

24- كريم موسى حسين، الملامح الماركسية في فلسفة توماس كون، العدد 303، بغداد، 2013م

25- المالكي علي، الأسس العلمية والفلسفية لنظرية النسبية المحدودة عند آينشتاين، الدار التونسية للكتاب، تونس، 2013م.

26- ماها قنوت، مجلة المعرفة مجلة ثقافية شهرية افتتاحية، تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، العدد 459، ديسمبر 2001م.

27- ماهر عبد القادر محمد، نظرية المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1985م.

28- ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم، المشكلات المعرفية، ج2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، 1984م.

29- محمود محمد علي محمد، التفكير العلمي و مستجدات الواقع المعاصر، دار الوفاء الدنيا للطباعة والنشر، ط1، 2013م.

30- هشام محمد، تكوين مفهوم الممارسة الابستيمولوجية عند باشلار، دار الشرق للطباعة، د.ط، 2006م.

31- هيلي باتريك، مقدمة لفلسفة العلم المعاصرة، صور المعرفة، تر: نور الدين شيخ عبيد، مر: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، ط1، 2008م

32- يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، 2000م.

33- يمنى طريف الخولي، مفهوم المنهج الفلسفي، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2000م.

قائمة المعاجم:

1- إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة، د. ط، 1403ه-1983م.

2- ابن منظور، لسان العرب، المجلد 13، دار صادر، بيروت، ط3، 2004م.

3- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول A-G، منشورات عويدات، بيروت. باريس، ط2، 2001م.

4- تدهوندرتش دليل أكسفورد للفلسفة، تر: نجيب حصادي، الجزء الأول من حرف أ إلى حرف ط، المكتب الوطني للبحث والتطوير، ليبيا، د. ط، د. س، ج2.
5- جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، د.ط ، 2004م
6- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1973م.
7- جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 2006م.
8- الحنفي عبد المنعم، المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية، دار النشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2000م.
9- روزنتال ويودين، وآخرين، الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، دار طليعة للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، د.س.
10- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، د. ط، 2007م.
11- مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر، الأردن، ط1، 2009م.
12- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط4، 2004م.
13- موسى خليل توفيق، معجم المعاصر، دار الإرشاد للنشر، ط1، 2001م.

قائمة المجلات والمقالات:

1- أنور أبو النور أحمد وآخرون، سلسلة الفلسفة والعلم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، د.ط، د.ت.
2- بوعلام الزهرة، الإبستيمولوجية الفوضوية عند بول فيرابند والتفسير اللاعقلاني لتطور العلم، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 10، العدد 02، ماي 2022.
3- حسن الحريري، فيرابند بين الفوضوية النسباوية، الشرق الأوسط، العدد 13337، الخميس 04 يونيو 2015م
4- السيد نفادي، اتجاهات جديدة في فلسفة العلم، عالم الفكر، المجلد 25، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996.
5- العالم عبد الحميد، إشكالية المنهج في الفلسفة المعاصرة من الأحادية إلى الفوضوية بول فيرابند أنموذجا، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد12، العدد 01، مارس 2024.
6- هري علي، البرمجة عند امري لاكاتوش، مذكرة لنيل شهادة الماجيستر في الفلسفة، جامعة قسنطينة، 2007-2008.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	أ
الفصل الأول: الخلفيات الأساسية والمنطلقات النقدية لفكرة اللامنهج عند بول فيرابند	7
المبحث الأول: بول فيرابند حياته، مؤلفاته ومساره الفكري	8
المبحث الثاني: الخلفية الفكرية لبول فيرابند	9
1- الخلفية الفلسفية	9
1-1 النزعة السفسطائية	9
1-2 جون ستيوارت مل	10
1-3 نيتشه	10
2- الخلفية العلمية	11
2-1 فلسفة ماخ العلمية	11
2-2 نظرية الكوانتم	12
2-3 النظرية النسبية	12
المبحث الثالث: المنطلقات النقدية	13
1- نقد فيرابند للعقلانية المعاصرة	13
1-1 نقد الوضعية المنطقية	13
1-2 نقد قابلية التكذيب عند كارل بوبر	14
1-3 نقد إشكالية تطور العلم عند توماس كون	15
1-4 نقد الميثودولوجيا البحثية عند امري لاكاتوش	16
المبحث الرابع: مفهوم المنهج وأهميته	17
1-1 مفهوم المنهج	17
1-2 أهمية المنهج	20
الفصل الثاني: الفوضوية المنهجية وعلاقتها بتطور العلم عند فيرابند	26
المبحث الأول: في مفهوم الفوضوية المنهجية	25
1-1 مفهوم الفوضوية	25
1-2 مفهوم الفوضوية المنهجية	30
المبحث الثاني: مبررات فيرابند في دفاعه عن الفوضوية (التعددية)	32
المبحث الثالث: الفوضوية وعلاقتها بالعلم	35

3-1 مفهوم العلم عند فيرابند	35
3-2 العلم كإديولوجيا	36
3-3 المعرفة العلمية من الموضوعية إلى النسبية	39
الفصل الثالث: حدود المقاربة الفوضوية عند فيرابند	46
المبحث الأول: مقاربة فكرية بين توماس كون وبول فيرابند	47
المبحث الثاني: مقاربة فكرية بين إمري لاكاتوش وبول فيرابند	52
خاتمة	62
قائمة المصادر والمراجع	66
فهرس الموضوعات	71

ملخص:

قدم لنا فيلسوف العلم النمساوي "بول فيرابند" رؤية فلسفية جديدة في ميدان تطور العلم، وذلك من خلال نظريته الفوضوية الابستيمولوجية التي تعد من أهم الأطروحات في فلسفة العلم المعاصرة وأكثرهم جرأة وتميزا، ويكمن ذلك في نقله لمسار البحث من التساؤل عن المنهج الأنسب والأكثر فعالية والأكثر دقة إلى التساؤل عن وجود منهج واحد كلي وثابت، وعن ضرورة اتباعه والالتزام بقواعده لدراسة وفهم هذا الواقع العلمي المعقد، وقد حاول من خلال هذه المقاربة أن يبرز مناهضته للعقلانية الكلاسيكية القائمة على المنهج الواحد والقواعد والقوانين الثابتة، فجوهر العلم عند "فيرابند" قائم على الفوضوية، والتي تقبل جميع النظريات والمناهج تحت شعار " كل شيء جائز"، فقد استطاع من خلال مقاربته أن يفتح آفاق واستبصارات جديدة في مجال فلسفة العلم المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: المنهج، العلم، الفوضوية

Abstract:

The Austrian philosopher "Paul Feyerabend" presented us with a new philosophical vision in the field of scientific development through his epistemological anarchistic theory, which is considered one of the most important contributions to contemporary philosophy of science, characterized by its boldness and distinctiveness. This theory shifts the focus of research from questioning the most appropriate, effective, and accurate methodology to questioning the existence of a single, comprehensive, and fixed methodology, as well as the necessity of adhering to its rules in studying and understanding this complex scientific reality. Through this approach, Feyerabend sought to highlight his opposition to classical rationality based on a single methodology, fixed rules and laws. The essence of science, according to Feyerabend, is based on chaos which accepts all theories and methodologies under the motto "anything goes." Through his approach, he managed to open new horizons and insights in the field of contemporary philosophy of science.

Key words: Method, Science, Anarchism.